لحن من السّماء

بقلم: إحسان كمال



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٨٧


قصص عربية

الاخراج الفنى

البير جورجى

رحلة الشتاء والصيف

وقفت منال ووالدتها أمام البوابة الخارجية للفيلا حوالى خمس دقائق وهما يناديان على البواب :

ـ عم جرس .. يا عم جرس .

ولكن ما من مجيب .. حتى خيـل اليهما أن المـارة فى الشارع ـ من غير سكان الحى ـ ينظرون اليهما بفضـول ودهشة من غرابة الاسم الذى يناديانه .. ولهم الحق ، منال نفسها لم تكن دهشتها أقل يوم سمعت بهذا الاسم لأول مرة .. منذ أعوام ، ذهبت يومها لتفتح الباب فاذا بها تجد الطـارق شخصا لم تره من قبل .. قصير القامة .. طويل الشارب :

ـ نعـم ؟ ..

ـ أنـا البواب الجديد يا ست هانم .. أرسلنى الأسطى عـواد .

ـ حسنا .. وما هو اسمك يا عم بواب ؟

ـ اسمى جرس ! ..

نظرت اليه باستغراب .. كان صوته حادا رفيعا مثل صوت الجرس .. أيضا على وجنته حسنة كبيرة بارزة ســوداء تشبه بالضبط زر الجرس ، من هنا كانت حيرتها فى أى من هــذين الأمرين كان السبب فى تسميته بهذا الاسم المزعج ! .. عادت تقول له :

ـ أنــا أريد اسمك الحقيقى ..

هو ذا اســمى الحقيقى يا ست هــانم .. مــاذا ؟ .. عجيبة ؟ ..

ـ لا أبدا ..

قطع حديثها رنين جرس التليفون فاستأذنت منه :

ـ اجلس قليلا لأن هناك جرسا آخر يريدنى .. عموما لن اتركك ترن كثيرا ! ..

لم يكن من المعقول أن تعود بمنال الذاكرة الى بدء معرفتها بعم « جرس » دون أن تتذكر ابنته .. فقد التحقت بخدمــة الأسرة فى نفس الأسبوع الذى جاء هو فيه ، عندما ســلمته العهدة .. وهى دكة أمام الباب وغرفة بأقصى الحديقة أبدى اعجابه باتساعها لرغبته فى احضــار ابنته معه .. ذكر لها أنهــا

تعمل فى منزل لكنهــا غير مرتاحة به ، وعنــدما طلبت منه ان يحضرها للعمل لديهم رحب جدا بذلك .. سألته :

ــ ومتى ستحضر جرسأية ؟ !

قال محتجا : جرساية ايه يا ست هانم ؟ .. ان اســمها قديســة ..

ــ اسم جميل .. الحقيقة أشهد لك أن ذوقك أفضــل من ذوق والدك .. الله يرحمه .

ــ لكن والدى مازال على قيد الحياة .

ــ حسنا .. لا تبتئس يا عم جرس .. الله لا يرحمه !

وجاءت قديسة .. صبية سمراء ظريفة ذكية .. فى حوالى الثالثة عشرة من عمرها .. أى فى مثل سن منال تقريبا ، ولمهارتها أحبهــا الكل . خاصــة منال التى خلعت عليهــا الكثير من أثوابها ، بل لم تعد تنزل للتمشى فى الحديقة الا بصحبتها .. فقد كانت تتسلق تكعيبة العنب أو شجرة الجوافة بخفة القرد لتأتيها بالثمار ، فضــلا عن براعتها فى سرد النكت والفوازير والقفز والنط فتسليها وتسعدها ..

شىء واحد فقط كان يغيظها منها .. عندما تحمل قطتهــا الرومى اللطيفة « ريتا » .. ثم تذهب الى حيث ربط الكلب

الوولف « سيف » وتلقيها أمامه •• ثم تقف لتتابع المعـركة الناشبة بينهما بسرور ، لا أحد يدرى ماذا كان يلذ لها فى هـذا الاشـتباك الذى كان يؤلم منـال جـدا •• وهى ترى سيفا يمسـك بريتـا فى فمـه ثم يلقيهـا عاليـا لتعود وتسقط على الأرض •• وأيضا عندما ترى ريتا تنشب أظفارها الحـادة فى فم سيف فتدميه ، لذلك كانت تسرع بالنزول الى الحديقة لتوقف المعركة •• حتى اذا استطاعت الفصل بين المتنازعين صاحت فى قديسة •

ــ اسرعى يا « مقصـوفة الرقبـة » باحضار زجاجـة « الميكروكروم » •

فاذا بها تخرجها من جيبهـا •• كانت العفريتة دائمـا مستعدة ! ، وتؤنبها :

ــ أحب أن أفهم ما الذى استفدته من هذه الشقاوة •• الا تخشين أن ينتقم الله لريتا فيوقعك بين يدى من هو أقوى منك ليعذبك هكذا ؟

فتقسم هذه بأغلظ الايمان انها لم تفعل شيئا •• وأن ريتا هى التى ذهبت للقتال بقدميها ! ، وتصرخ منال :

ــ ألا تكفى معاكستك للقطة حتى تقسمى بالله كذبا ؟ •• وبعد كل هذا تدعين قديسة ؟ ! •

والحق ان الذى أسماها قديسة كان قد أخطأ خطأ بينا .. فكثيرا ما اكتشفت منال عجزا فى مناديلها وأشرطتها وبنسها .. لكنها كانت تتجاهل الأمر معترفة لها بأنها على قدر كبير من الذوق .. حيث لم تكن تأخذ سوى القديم الذى كادت هى تستغنى عنه من تلقاء نفسها ! .

ذات يوم اكتشفت منال أن قديسة قد عقلت جدا .. فلم تعد تنط الحبل أو تدهن وجهها دقيقا وتلبس طرطورا لتخيف دادة سيدة ، أيضا لم تعد تنزل الحديقة وتروح تموء وتنبح مفتعلة بفمها جميع أصوات المعركة بين ريتا وسيف حتى اذا نزلت منال مسرعة لم تجد سواها وهى تضحك .. أكثر من ذلك لم تعد تشترى بأى مبلغ يصل يدها لبا وتقزقزه بسرعة ألف حبة فى الدقيقة ، ثم تأكدت أنه لابد قد حدث فى الدنيا شيء عندما طلبت والدتها من الدادة احضار أرنبين لذبحهما .. فلم تسبقها قديسة الى العشة لأخذ الأرنبين الأسودين واخفائهما فى صندوق ملابسها .. كما كانت تفعل فى كل مرة .. تحيزا للونها ، بل عندما أحضرت الدادة أرنبا أسود اللون أمسكته لها للذبح دون أن تبكى كما فعلت عندما ذبح قبل ذلك أرنب أسود ، وتساءلت كثيرا فى نفسها عما دهاها .. لكنها لم تستطع الوصول الى سبب ..

ثم عادت تصرفاتها تدهشها عندما وجدتها تذهب الى

الكواء عدة مرات فى اليوم ، كانت اذا أرسلتها بثوب يخصها مثلا — تحضر بعد نصف ساعة لتقول لها أنها نسيت أن توصيه بكى الكسر حتى الذيل كما أمرتها .. لذلك ستعود اليه لتنبهه الى ذلك ، ثم بعد ساعة أخرى تذكر لها أنها ذاهبة الى الكواء لأنها نسيت أن تخبره برغبتها فى ارتداء الفستان اليوم ، ثم تقول بعد عودتها أنه طلب منها الحضور لأخذه بعد ساعة لأن صبيه قد ترك العمل ، وحين تحضره أخيرا وتريه لها لا يعجبها فتقول :

— ما هذا الكى الردى ؟ .. النهاية .. ضعيه فى الدولاب ..

لكنها لا تنتظر حتى تسمع بقية كلامها فتسرع الى الخارج .. وتناديها :

— الى أين يا قديسة ؟ ! ..

— الى المكوجى لأوبخه على عمله وأجعله يعيد كيه مرة أخرى ..

كان كل فستان أو بدلة يكلفها ثلاثة مشاوير .. أخيرا رأفت منال لحالها ونصحتها بتغيير هذا الكواء المتعب بكواء آخر .. لكنها لدهشتها لم ترحب بهذه النصيحة ، حتى عرفت بذكائها — الذى جاء متأخر — أن قديسة قد وقعت فى غرام الكواء .. ولذلك تكثر من الذهاب الى محله للتزود منه بنظرة ، وخبطت منال كفا بكف :

ـ من أول الأمر قلت ان قديسة هـذا اسما على غير مسمى !!

عندما ذكر البواب لرب الأسرة أن زكى الكواء قد خطب ابنته .. وانه قد وافق ويلتمس موافقتـه أيضا نصحه بأنهـا مازالت صغيرة ، لكنه أكد أن جميع أهـالى الصعيد يفضلون زواج بناتهم فى سـن مبـكرة ، ومن ثم لم يسعه الا الموافقـة ومساعدته فى بعض النفقات .

لم يمض عام على الزواج الا وكانت قديسة قد انجبت طفلا ، وبطبيعة الحـال كانت تأتى من حين الى حين لزيـارة والدها .. لكن الذى أدهش منال ووالدتها أن مرحها كان يقل يوما بعد يوم ، ثم بدأت تفضفض بأن أحوال زوجها المـالية ليست على ما يرام لاستدانته الكثير من أجل مصروفات الزواج ، وألحت الى رغبتها فى العودة للعمل فرحبت ربة الأسرة بذلك .

فجأة قرر زكى السفر الى الاسكندرية .. حيث مجـال الرزق أوسع فى فصل الصيف .. وحيث لا يحتمل الفستان أكثر من ساعـات على البـلاج .. ثم تدركه الشيخوخـة وتظهـر تجاعيده .. فيصرخ طالبا الذهاب الى الكواء ليعيد اليه شـبابه بفرد هـذه التجاعيد ، بعدها أرسل فى طلب قديسة وابنهما .. وما أسرع ما لبت طلبه .. فسافرت اليه والسعادة تفيض من

أعطافها ، ومن هناك أرسلت لوالدها الخطـاب تلو الخطـاب تطمئنه على أحوالها •• وتذكر له بالتفصيل كل ما اشتراه لها من حلى وأثاث ••

لكن لم تمض بضعة آشهر حتى عادت قديسة وطفلها •• دون أية هدية تحملها لوالدها •• ويبدو أن زوجها قد رأى فى الجنين الذى تحمله فى بطنها خير هدية ! عادت تبكى وتقول ان أشهر الصيف ما كادت تنتهى حتى قل دخل زوجها •• لكنـه عوضها عن هذا النقص فى المـال بزيادة فى الاهانة •• حيث كان خلو يده يزيد من عصبيته ، من ثم باع الحلق والسرير •• وكل شىء ، ولم يكن أمامها مفر من ترك البلد كله له والعودة الى القاهرة •• بعد أن اعتصرهما الاحتياج •• وهو قادر على تجفيف أية بحيرة للحب والحنان •• قالت أنها خلاص •• لن تعود اليه أبـدا :

ــ ولو كان ديننا يسمح بالطلاق لكنت طلقت منه فورا ! •

بعدها ظلت تسأل منال عما اذا كانت تعرف طريقة توصلها لهـذا :

ــ طيلة النهـار أراك تقرئين فى الكتب والمجـلات •• ألا يوجد فى هذا الكتاب الذى فى يدك طريقة أحصـل بها على الطلاق من زكى •• ؟ أو تخلصنى منه بأية وسيلة ؟

فكرت منال قليــلا : ربما .. فان هــذا كتــاب التدبير المنزلى .. فاذا أخذت منه احــدى الوصــفات ونفذتها لزكى بيديك .. فليس ببعيد أن تتخلصى منه بدون طلاق !! ..

تمر شهور ثم يصــل خطاب من زكى يحوى اذنا بريديا بمبلغ من النقود حتى تشترى كساء للأولاد قبل سفرها اليه ، نظرت اليها منال وهى جالسة أمامها على البلاط ــ حيث كان الصيف قد بدأت بشائره ــ وراحت تتساءل .. ترى هل تسافر أم لا ؟ ، وعندما رأتهــا تقبل ابنتها وتدللها بســعادة عرفت الجواب ! . وبالطبع لم تنس قديســة كسوة الأطفال كرغبــة زوجها .. بعدها أوصلها والدها الى المحطة وقطع لها التذكرة .. وتمنى لرحلتها السلامة ..

بيد أنها لم تغب طويــلا .. ففى نفس موعــد العــام المــاضى .. فى نوفمبر .. عادت قديسة .. وجلست تقص قصتها .. وقتها تمنت منال لو لم تكن قوية الذاكرة هــكذا فلا شىء يضايقها أكثر من اضطرارها لسماع قصــة واحــدة مرتين ، كانت أقوالها نسخــة بالكربون من أقــوال العــام المــاضى .. أيضا شكلها .. ولو أخذت لها أيامها صــورة بروفيل لبدت وكأنها التقطت لها هذا العام .. حيث كانت تحمل فى بطنهــا المتكرش الحفيــد الثــالث لعم جرس المســكين .. الذى لم يضــج ولى يشــك وانمــا هى التى لم تكن تمل ترديــد الشــكوى ليــل نهــار ، بل يزداد بكاؤهــا كلمــا

سمعت أغنية المرحوم فريد الاطرش « على دمعى آنام •• على دمعى أقوم » وهى تعلق !

ــ كأنه يصف حالى بالضبط !!

الى أن جاء يوم أذيعت فيه هذه الأغنية •• وأسرعت منال تخفت صوت الراديو •• ولولا اعجابها بالأغنية لأغلقته ، واذا بها تفاجأ بقديسة تحضر من المطبخ وهى تضحك ضحكا شديدا ، حتى استطاعت آخيرا آن تتمالك نفسها فهتفت :

ــ أتسمعين ماذا يقول فريد ؟ •• انه يقول على دمعى أنام على دمعى أقوم •• لمــاذا ؟ •• أليس لديه سرير ؟ ! ••

وتلفتت منال حولها بدهشة واذا ببصرها يقع على نتيجــة الحائط تعلن آن شهر يونيو قد بدأ •• صاحت فيها :

ــ قديسة •• هل وصلك خطاب اليوم من الاسكندرية؟•

ــ شيء غريب •• كيف عرفت ؟ •• لابــد قــد رأيت القفة •• التى سأخذ فيها الزيارة لزكى ! ••

ظلت تشترى والقفة لا تمتلىء ، أخيرا سافرت والأسرة كلها ترجو أن تكون الأخيرة •

تنبهت منال من خواطرها على والدتها تعاود النداء •

ــ عم جرس •• يا عم جرس

لكن عم جرس لم يظهر له أثر .. فقالت الوالدة :

ــ لقد كدنا نتأخر .. وأرى أن نذهب لمشوارنا ثم نسأل عم جرس عن الخطـاب عند عودتنا ..

لكن منال لم ترد .. كانت فى واد آخر .. تسائل نفسها فى دهشة .. عما اذا كان هنـاك حقا ما يسـمونه بالحاسـة السادسـة .. والا فلمـاذا فى هذه اللحظـة بالذات تذكرت قديسة ؟ ! .. فمن بعيد رأتها قادمة ، قديسـة بنفسـها .. وبجوارها أطفالها الثلاثـة .. وفوق رأسـها قفتها .. كمـا سافرت .. مع فارق بسيط ، لقد سافرت وبطنها فارغة وقفتها ملآنة .. وعادت ــ ككل مرة ــ وقفتها فارغة وبطنها ملآنة ما كادت تنتهى من السلام حتى أخذت تبكى وتقول :

ــ جعلنى أبيع كل ما أملك .. لن أريه وجهى بعد اليوم أبدا .. آه لو كان ديننا يسمح بالطلاق ؟ .. الخ الخ ..

أغمضت منال عينيها ووضعت يدها على رأسها .. لقد شاهدت هـذا الفيلم أكثر من مرة ، قالت لها مازحة :

ــ انك تتشبهين بالعظماء يا قديسة .. كل سنة تصيفين بالاسكندرية ثم تشتين هنا فى حلوان ! ، لكنك هـذا العام بكرت بعض الشىء .. لم نزل فى أكتوبر ؟ ..

ردت ساخطة : وماذا أفعل فى حظى العاثر ؟ .. لا أدرى علام كان الشتاء متعجلا فى القدوم هـذا العام هكذا ؟ ! ..

فى هذه اللحظة أقبل عم جرس .. الرجل الصامت كأبى الهول ..

سلمت عليه قديسة .. وقبلت يده .. ولم يزد هو عن أن نظر اليها طويلا ثم سألها :

ـ جئت يا قديسة ؟ ..

ـ أجل يا أبى .. لقد حل الشتاء ..

وكأنما أرادت السماء أن تؤكد كلامها فبدأت تمطر خفيفا.. بنقاط كأنها دموع .. تذرفها الطبيعة اعتذارا عما بدر منها فى حق قديسة .

لحن من السماء

رتبت أمامى كل مستلزمات صينية البطاطس .. ثم جلست وقد تهيأت للبدء فى العمل .. حين ارتفع صـوت الكمـان عاليا .. ليصيبنى الجزع ! رغم أن اللحن كان عذبا رقيقـا .. حنونا شجيا ! .

أصخت هنيهة حتى استطعت تحديد الجهة التى يأتى منهـا الصـوت .. الحديقة الخلفيـة للشاليهات .. ألقيت ما بيدى وانطلقت أعدو صوبها ، فعلا كان هناك .. يجلس تحت شجرة محتضنا كمانه كالأم حين تحتضن وليدها .. وقد هام مع أنغامه حتى غاب عن الدنيا بأسرها . بدلا من أن أتمنى لو كانت معى كاميرا لأسجل بها منظره الساحر هذا هتفت به :

ـ خالد .. كف عن العزف .. فورا .. بابا نائم .

التفت الى وقد قفزت مشاعر خيبة الأمل على ملامحه .. نظر فى ساعة يده مذهولا :

ـ ليست الساعة الحادية عشرة صباحا بالموعد المناسب للنوم !

صحت بحدة :

ـ لم ينزل الله آية فى أى من كتبه المقدسة يحدد فيها ساعات النوم .. وطالما بابا فى اجازة فان من حقه أن ينام فى أى وقت يريد ..

فتح فمه لكنه لم ينطق بحرف .. فى حين أحسست أنا بالندم لحدتى معه .. لم يرتكب أى خطأ ، جلست بجواره .. قبلته .. ثم رحت أقول فى رقة وأنا أربت كتفه بيدى :

ـ الحقيقة أنه لم ينم جيدا الليلة الماضية .. أيقظه بعد الفجر بقليل بائع تين سخيف . لم يجد مكانا ينادى فيه على بضاعته سوى أسفل نافذته .. لذلك رأى أن يعوض فترة نومه بعد الأفطار ، ثم اننى مندهشة .. أجازتنا هنا بالاسكندرية محدودة .. وأنت لا تستغلها فى الاستمتاع بالبحر ... انك تستطيع العزف على كمانك فى القاهرة .. أو فى أى مكان .. أما هنا فيجب أن تأخذ حظك من السباحة ، هيا .. اذهب الى البحر وأرنى الى أى مدى تستطيع العوم .

تنهد مستسلما :

ـ حسنا يا أمى .. سأذهب الى البحر .

قبل أن يغيب عن بصرى التفت ولوح لى •• لم أستطع العودة للعمل فى المطبخ بسبب التوتر الشديد الذى شعرت به بعد هــذا الحوار •• ذهبت الى الشرفة •• مؤملة أن يستطيع البحر امتصــاص توترى •• فعلا •• منظر البحر يسحرنى •• يدغدغ أعصابى •• أرســل ببصرى الى اتساعه اللانهائى •• وأمواجه تأتى من بعيد •• بعيد جدا •• بسرعة •• متلهفة على لقاء الشاطىء •• وكأن لديها أسرارا هامة تريد أن تهمس بهــا اليه •• لكنها ما أن تصله •• وتلثمه •• حتى تنتهى •• وهى سعيدة جدا بهذه القبلة الخاطفة •• المرتجاة •• التى دفعت فيها حياتها ! ، رغم ذلك فأخوات لها يقدر عددهن ببلايين البلايين سرن ــ وسيسرن ــ على نهجها •• منذ بدء الخليقة •• وحتى يرث الله الأرض ومن عليها ••

رغم جلوسى فى مواجهة البحر الا أننى لم أره •• فوق صفحته الممتدة انطبعت أمامى صــورة مكبرة جدا لخالد •• أيضا بدلا من صــوت الأمواج تناهى الى أذنى صوت الكمان ! لم يطل المنظر طويلا •• فجأة انسدل عليه ســتار شفاف •• ستار من الدموع •• التى ملأت عينى عندما فكرت أن خالدا ربما استاء من كلامى ، لكننى كنت معذورة •• أحاول دائمــا أن أوازن بين متطلباته ومتطلبــات شــفيق •• زوجى •• حتى لا يجور أحدهمــا على حق الآخر ، ويعــلم الله كم أعــانى فى

ذلك •• لكأننى بهلوان يسـير فوق حبل مشـدود •• يجب ألا يميل ــ ولو قيد أنملة ــ ذات اليمـين أو ذات اليسار •• والا كانت الكارثة !!

عموما أحمد الله أننى وفقت فى ذلك الى حد كبير •• وان كان هـذا على حساب أعصابى التى كانت ــ ولاتزال ــ دائما متوترة •• دائما متحفزة لكل كلمـة ينطق بها أحدهما •• وعلى الأخص شفيق •• كلما وبخ خالدا أو نهره أو عاقبه على أى شىء •• استأت منه ، أحيانا أعاتبه وأحيانا أخرى أخاصمه •• وأحيانا ثالثة اكتفى بالبكاء •• وحدى •• لكنه كان يلحنى ، وفى كل مرة كان يؤكد لى أنه يحب خالدا ويعتبره ابنه •• خاصة وهو لم ينجب قط •• لكن الشدة هـذه ضرورية له حتى يشب قويا ، بل أنه لم يتردد فى بعض المرات أن يقسم لى على المصحف أو على كسرة خبز !!

وكنت أصدقه •• من قلبى ، فكل تصرفاته مع خالد تؤكد هـذا •• فى دراسـته •• فى مرضـه •• فى لهوه •• وفى كل شىء ، لكننى مع ذلك لا أكاد أراه يحتد عليه حتى أحس ــ رغما عنى ــ بالدماء تندفع الى رأسى ! ، هى طبعا شدة حساسـية لوضعنا المتشابك •• فأكثر من مرة حدث أن عاقب أخى أو أحد زوجى شقيقتى أيـا من أولادهم أمامى وأمام أم الصبى •• لكن واحدة من هاته الأمهـات لم تغضب أو تحتج أو تتألم ،

وينظر الى شفيق نظرة ذات مغزى .. فأغضى الطرف ولا أستطيع أن أواجه نظراته !

على أن ذلك لم يكن أبدا من حسن حظ خالد .. فقد كنت أنا أتشدد فى معاملته ومحاسبته على الصغيرة قبل الكبيرة .. ربما كى يجد شفيق أنه لم يعد هناك داع لتدخله .. أكثر منه تشددا من أجل التربية فى حد ذاتها ! . وان كان هذا لم يمنعنى ذات يوم من الغضب منه لأنه لم يعاقب ابنى ! كانت المرة الأولى فى حياة خالد التى يرتكب فيها خطأ بالغا .. عدل بعض درجاته فى الشهادة المدرسية . وعندما أخبرت شفيق بالأمر بدا عليه الغضب والانفعال .. لكنه لم يلبث أن دخل غرفته استعدادا للنوم دون أن يستدعى خالدا ليحاسبه على هذه الغلطة .. وثرت عليه :

ــ تردد كثيرا أنك تعتبره ابنك .. فهل يمكن أن يسكت أى أب على مثل هذا التصرف من ابنه دون عقاب ؟ !

خبط كفا بكف :

ــ والله لقد حيرتنى معك .. فأنا ...

قاطعته :

ــ أعرف ما ستقول .. اننى أغضب اذا عاقبته على خطأ ما .. طبعا لأنك كنت تعنفه لاخطاء تافهة .. أما هذا الخطأ

فجسيم •• ولا يكفى فيه توبيخ الأم •• بل لابد من تدخل حازم من الأب !

أكثر من مرة سألت نفسى •• هل أخطـأت بزواجى مرة أخرى بعد وفـاة والد خالد ؟ • لكنى كنت فى بداية شبابى •• بعض من هن فى مثل عمرى أيامها لم يكن قد تزوجن بعد • وكم هى قاسية ــ الحياة ــ على شابة فى الرابعة والعشرين وطفل فى الخامسة من عمره •• بدون يد قوية تعينهما •• بدون قلب حنون يدفىء صقيع أيامهما •• لكن أيضا الزواج مغامرة •• لوجود صبى قد يسىء اليه زوج أمه ••

مزقتنى الحيرة •• لدرجة اننى حكمت بصــواب ما قيل أن بعض القبائل الهمجية أو الوثنية تفعله •• حين يموت أى رجل متزوج فتدفن زوجته معه حية •• رأيت أن هــذا أفضل لهــا !!

بعد أعوام ثلاثة •• وجدت اننى كالتائهة فى بيداء الحياة ؛ عندما ينتهى النهــار ومشغولياته بنوم خالد •• ويأتى الليــل ــ وما أطول ليالى الوحدة ــ أنظر الى الساعة فأجد عقاربها تكاد لا تسير •• وكأن تروســها قد أصبحت مثل تروس انتظارى•• بحاجة الى ونش حتى تستطيع ان تتحرك ! ، وقالت أمى :

ــ حل المعادلة الصعبة فى حسن الاختيار •• لا تقبلى

أى متقدم •• وانما اختـارى أحسنهم خلقـا وأكرمهم أصـلا وأكثرهم حنانا ، وكان شفيق •

وللحق ـ عدا بعض اللحظات الانفعالية منى ـ أعتبر أننى وفقت فى الاختيار ، ولولا أن شفيق يحب خالدا فعلا لمـا أحبه هذا الأخير وتعلق به الى أقصى حد •• حتى أنه من تلقاء نفسه بدأ يناديه بابا •• بعد أن ظل أغلب العام الأول لزواجنـا يناديه عمى ! وهكذا بحب شفيق لى ولخالد وسعة صدره •• وبدماثة خلق خالد وحسن تربيته •• وأيضا بحرصى على توزيع عواطفى وعنايتى عليهما بالعدل •• بحيث يحصـل كل منهما على حقوقه تجاهى وزيـادة مهما بذلت من جهد مضاعف •• بكل هـذا سارت مركب حياتنا فى أمان ، حتى اشترينا لخالد الكمـان الذى كان يرغبه •• فـاذا بالمركب يهتز •• وكأنه ـ رغم خشـبه الرقيق ـ وزن ثقيل ألقى فيها ! ••

الغريب أن زوجى هو بنفسه الذى وعد خالدا بالكمـان حين كنا فى الصيف المـاضى ننتظر نتيجـة الثانويـة العامة ـ ولا أنسى شدة قلق شفيق ليلة ظهور النتيجة •• حتى أنه لم ينم تقريبا وظل يشعل السيجارة وراء الأخرى ـ المهم قبل خروج خالد سأل :

ـ هل تعدنى يا بابا بشراء كمان لى اذا ما حصلت على مجموع كبير يمكننى من الالتحاق بكلية الطب ؟

هتف شفيق باندفاع :

ـ أعدك ! ..

وقد كان .. رغم أننى ظللت أرفض لحوالى عامين .. شراء هذه الآلة خوفا من ازعاج شفيق .. الذى كان يحب الهدوء ويحب النوم لأطول فترة ، لدرجة أنه كان يعتبر ساعات نومه هى الغنيمة التى يقتنصها من الزمن .. على عكسى أنا التى أعتبر فترة النوم فترة ضائعة من عمر الانسان ، وكم تناقشنا فى هذا فكان دائما ينهى النقاش قائلا بيقين غريب :

ـ لا تنسى أن النوم هو ميزان العقل !

لذلك خشيت أن يتسبب عزف خالد فى اقلاق نوم شفيق وبالتالى يهتز ميزان عقله ... فماذا ينتظر منه أن يفعل وقتها فيمن تسبب فى ازعاجه ؟ ... طبعا لا أستبعد أى شىء ! ... وبالتأكيد وقتها أنا التى سأعانى أكثر من أى شخص آخر حين أقع بين المطرقة والسندان !

عندما قضى الأمر وجاء الكمان اشترطت على خالد ألا يعزف الا فى أوقات معلومة ، وطبعا بمجرد بدء الدراسة فانه لم يكن يجد الوقت للعزف . لكن المشكلة بدأت منذ حضورنا للمصيف .. فمن ناحية خالد فى اجازة ومن حقه أن يستمتع باجازته .. وأجمل استمتاع لديه العزف على كمانه الذى

اشتاق اليه بعد حرمان شهور الدراسة المضنية ، ومن ناحية أخرى شفيق يريد أن يستجم ويريح جسده الذى أرهقه طوال شهور العمل ، وطبعا الشالية صغير .. كما أن حوائطه كلها من الخشب الحبيبى الذى لا يمنع أكثر الأصوات خفوتا ، لذلك اتفقت مع خالد ألا يمارس هوايته الا فى فترتين .. الأولى بين العاشرة صباحا والواحدة ظهرا .. والثانية من السادسة حتى العاشرة مساء .. ولكن .

لم نكد نمضى فى المصيف يومين حتى أصيب شفيق بأنفلونزا .. ألزمته الفراش طوال بضعة أيام ، وبدون أن أطلب من خالد امتنع هو من تلقاء نفسه عن العزف كلية حتى شفى شفيق وبدأ منذ أول أمس يخرج الى الشاطىء فعاد لممارسة هوايته المحببة فى الأوقات التى عينتها له بنفسى .. مع ذلك فهأنذا أمنعه اليوم ، لكن هل كان أحد ينتظر منى أن أمنع شفيق من النوم فى أى وقت يريده أو يحتاجه متعللة باتفاقيتى مع ابنى ؟ !

طبعا كنت مضطرة لتصرفى مع خالد .. لكن اقتناعى باضطرارى لم يمنع شعور المرارة من نفسى .. كما لم يمنع تساؤلى المتلهف على رد فعله فى نفس خالد ، ترى هل شعر باحباط ؟ ترى هل ذهب الى البحر حانقا ؟ ترى هل تضايق

منى وأحس أننى أهتم براحة شفيق أكثر من اهتمامى بسعادته ؟ لكننى حاولت هدهدة مخاوفى فرحت أقول لنفسى : « لا أظنه حانقا على .. فقد حاولت ارضاءه قبل الانصراف .. ثم انه يحب شفيق وطبعا ستهمه راحتـه .. أيضا هو نقى السريرة فلابـد سيقدر موقفى ويعذرنى » .

عندما اطمأننت لذلك هممت بالقيام من مقعدى لكى أكمل ما بدأته من عمل فى المطبخ .. لكننى توقفت بغتة .. سمعت هرجا ومرجا والنـاس تتكأكأ على الشاطىء .. غير بعيد عن مكـانى ، واستطعت تمييز صـوت يقول « غريق » ، وجن جنونى .. خشيت أن يكون خالدا .. خاصة أنه قد ذهب الى البحر ونفسيته متضايقة . وبدون وعى أو تفكير نزلت الدرجات القليلة بملابس المنزل .. أخذت أحث الخطى فى الشارع وأنـا أتخبط فى المـارة .. الذين لم يحاولوا أن يوسعوا لى وكأنهم قد زرعوا فى الأرض .. أو كأنهم أعواد نبات نمت فى حقول الأسفلت ! نزلت الى الشاطىء .. ورحت أعدو والأفكار تعدو بدورها داخـل رأسى .. « غير معقول أن يكون خـالدا .. الشاطىء يزخر بالآلاف .. لكن هنـاك احتمالا أيضا أن يكون هو .. فهو أحد هـذه الآلاف .. ليتنى ما طلبت منه الذهاب للبحر .. لم يكن فى نيته ذلك .. بل كان قانعا بكمانه .. يداعب أوتاره .. أأكون أنـا التى أرسلته لحتفه ؟ . يا الهى ! .

ولكن لماذا يكون هو ؟ .. قد يكون أى شخص آخر ، واذا كان هو فهل يكون فعلها بنفسه ضيقا من حياته عندما منعته من العزف .. لكن هذا المنع ليس أمرا خطيرا .. أم أنه أراد معاقبتى بحرمانى من نفسه ؟ . يا للسماء .. هل يمكن أن تحمل نفسية خالد البريئة مثل هذه الفكرة الجهنمية ؟ .. لا .. مستحيل ، أو ربما سحبه الموج لعدم تمكنه من السباحة .. نعم .. أنا أعلم أنه لا يجيد السباحة تماما .. يا الهى .. ليت صاعقة تنقض على رأسى الآن فتسحقنى .. مع ادراكى لقدرته الضعيفة فى السباحة حسسته وقلت له أرنى الى أى مدى تستطيع العوم .. أمن أجل أن يرتاح زوجى أقتل ابنى ؟ . يالى من شقية .. ارحمنى يارب أنا لم أخطىء حين تزوجت مرة ثانية .. وحتى اذا كنت أخطأت فلا تعاقبنى بهذا العقاب الفظيع .. فاذا أنا فقدت خالدا فلمن أعيش ؟ انه وحيدى وصديقى .. ذخر عمرى وكنز حياتى .. نور عينى وأمل دنياى .. اننى أعيش له وبه .. فلا تحرمنى منه يا ربى » .

رغم عدوى لم أستطع الوصول الى مكان التجمهر .. لم يكن الناس على الشاطىء بأقل منهم فى الشارع ، حتى لا يعطلنى تفاديهم انحرفت أكثر ناحية البحر حتى بدأت قدماى تخوضان فيه .. كم كان يمتعنى ملمس الماء .. لكن الآن

أمقته .. ايه أيها البحر .. تبدو لنا لطيفا حنونا .. تدغدغ أجسامنا برقة .. ثم فى لمح البصر تنقلب وحشا فتاكا .. تتربص بصديق لك رحت تداعبه ويداعبك .. واذا بك تغدر به وتغتاله بخسة ودناءة !!

فجأة سمعت صـــوتا من بعيد .. لا .. أعتقد أنه قـــد خيل الى انني اسمعه .. أيها القدر ترفق بى .. لا تبعث فى نفسى بريق الأمل ثم تعود وتحطمه .. ترتفع بى الى أعلى وأعلى .. ثم تسقطنى من حالق فتتهشم كل عظـــامى ، لكن الصـــوت يستمر .. ويرتفع قليلا .. وتوقفت أصيخ السمع لأحدد من أين يأتى ، تماما كما توقفت منذ أقل من ساعة فى مطبخى .. انه يأتى من خلف الكبائن .. أسرعت الى هنـــاك وقلبى يكاد يكف عن الدق .. نظرة واحدة سقطت بعدها على الرمال وأنـــا أتنهد تنهيدة طويلة .. عندما اطمأننت على ان الأرض ستظل تدور كما اعتادت .. على أن الدماء ستظل تتدفق فى شراييني .. على أن الشمس ستظل تشرق كل يوم فى موعدها ! .

كان خالد يجلس فوق صخرة يداعب أوتار كمانه فتتصاعد أنغام لحنه المفضـــل .. الذى بدا لى لحظتها أجمل وأروع من أى لحن سمعته فى حياتى .. كأنه لحن تعزفه ملائكة من السماء

وليس بشرا فوق الأرض !! ، مع أنه نفس اللحن الذى كان مجرد سماعه — خلال الأسابيع الماضية — يصيبنى بالهم والقلق .. بل أحيانا بالذعر !!

بدأ بعض المصيفين يتحلقون حول خالد .. لم يدهشنى ذلك .. فقد كان اللحن ينساب فى عذوبة ..

وانسابت دموعى معه .

أردت أن أعتذر اليك

سألته باهتمام : ما بالك يا عادل ؟ .. هل هنـاك ما يشغل تفكيرك ؟ رد بخفوت : أبدا أبدا .. لا شيء .. على الاطلاق ..

ـ لك عدة أسـابيع وأنت متغير .. طعـامك قليل .. وكلامك أقل ! .. دائما مشغول تفكر ..

ـ تعلمين طبعا .. الامتحان قد اقترب ..

ـ على مدى سـنوات عمرك .. لم تخش الامتحانات أبـدا ..

ـ الحقيقة أن مواد هـذا العام أكثر صعوبة من كل ما سبق ..

ـ يعنى ذلك ان أطمئن أنه ليس هناك شيء آخر يضايقك أو يعكر مزاجك ؟ ..

غشيت صوتها مرارة واضحة وهى تسأل سؤالها الأخير ..

مرارة يعرف سببها جيدا •• لذلك أطرق برأسه الى الأرض متحاشيا أن تلتقى عيناها بعينيه وهو يؤكد :

ــ اطلاقا يا أمى •• لاشىء اطلاقا ! ••

انسحب الى حجرته ووقف ــ لا يعرف للمرة الكم بعد الألف أمام تلك الصورة القديمة •• أسرة من أربعة •• تبدو على وجوه جميع أفرادها السعادة •• ترى هل كانوا يعرفون أيامها أية سعادة يرفلون فيها ؟••لا يظن فالسعادة من الاحاسيس التى لا تذكر غالبا الا بعد ذلك الفعل الماضى •• القاسى أحيانا •• « كان » ! •• حيث لا يشعر بها الانسان •• أى انسان •• الا بعد أن تمضى وتصبح ذكرى •• يهرع اليها صاحبها ليفىء فى ظلها كلما اشتد عليه هجير الحياة ، لم يعد باقيا على قيد الحياة من أفراد الأسرة سواه وأمه •• لكن أمه •• هل تحيا حقا ؟ •• بل وحتى هو ؟ •• نعم •• اذا كانت كل مظاهر الحياة هى الطعام والشراب والتنفس •• ولكن ••

عاد ينظر للصورة ويركز على والده ، من رحمة الله على الناس أن أخفى عنهم ما سيأتى به القدر •• فهل لو علم الوالد أنه بعد شهور قلائل سوف يوارى التراب •• أكان يبتسم مثل هذه الابتسامة ؟ كانت فجيعته لفقد والده قاسية بقدر كبير •• نفس قدر تعلقه به •• وأخته أيضا •• ملأ الحزن قلبها

الصغير .. ولم يكن حزن الأم بأقل منهما .. والحق يقال ، كادت تنسى الضحكة بعد أن نسيت بالفعل الاهتمـام بأناقتها وجمالها .. وبدأت تذوى وتذبل ، لم يكن أحد يراها متسربلة بكل ذلك السـواد ــ ويصـدق أنها لم تتجاوز الثلاثين عاما الا ببضعة شهور ! أبدا لم تفلح محاولات الأقارب والصديقات فى اخراجها من تقوقعها الصارم ..

أياما وأسابيع .. شهورا وأعواما .. مضت قبل أن تبدأ فى الخروج من أسر حزنها المرير ، هل كان للحب فضل فى هـذا التحول ؟ أجفلت بشدة عندما مر ــ مجرد مرور ــ ذلك الخاطر فى خيالها .. رفضت أن تعترف .. حتى بينها وبين نفسها بهذه النبضة الخافتة التى كانت تحاول باستماته أن تفصح عن نفسها .. فى مواجهة محاولات رجاء المستميتة أيضا ــ لو أدها ، هل يعقل هذا ؟ .. هل يعود القلب للحياة بعد طول موات ؟ !

ــ نعم .. ولم لا ؟ ..

رد « مثير » ، استطرد :

ــ كما لو كنت تخوضين حربا ! .. لصالح من ؟ .. أو ماذا .. كلام الناس ؟ .. يقولون عن الأرملة التى لا تتزوج ثانية .. ما أروع الوفاء ! . وحتى لو أقاموا لها تمثالا .. فهل يعوضها ذلك عن وحشة حياتها وخوائها ؟ ..

ــ والأولاد ؟ ..

ــ سبق أن أخبرتك بما صارحنى به الاطباء أثناء زواجى من أننى لن أنجب ، واذن فسيسعدنى أن اعتبر « عادل ومنى » ولدى .. أهتم بأمورهما وأرعى شئونهما .. ويمنحاننى بدورهما شعور الأبوة ..

رغم كل حججه ظلت مترددة ، وخطر له خـاطر فبـادر بعرضه عليها .. أن يجعل ولديها يحبانه حتى يرغباهما فى هـذا الارتباط بدلا أن تفاجئهما هى به ..

ــ كيف ؟ ..

ــ أقضى لكم بعض المهـام التى تحتـاج لرجـل كى يؤديها .. مع أظهار اهتمامى بشئونهما ... أيضا بعض اللعب والحلوى ..

هزت كتفيها فى غير رفض ولا تحمس . جاءت الفرصة عندما رفضت ادارة النادى تجديد عضويتهم لانقطاعهم فترة طويلة .. وبذل « منير » مساعيه فوافق المدير على التجديد ، تكرر تدخـل منير مرتين أو ثلاثا فى أمور تختص بشـئونهم الحياتية .. بل وشئون « عادل » ومنى المدرسية ، حتى صرح « عادل » فى احدى المرات لأمه :

ــ حقا يا أمى •• لقد أرسل الله لنا أو نكل منير نجدة من السـماء ! ••

لم يكن هنـاك من هو أسـعد من منير عندما نقلت له « رجاء » هـذا الحديث •• واندفع يزيد من خدماته ورعايته•• واذا بالريح تتحول لغير صالحه ، قال عادل لرجاء يوما :

ــ ماما •• أرى أن خدمات الأستاذ منير لنا قد زادت بعض الشيء ••

ــ لكنك كنت سعيدا بتلك الخدمات وشكرته عليها ! ••

ــ عندما يكون الشاى مرا ونضـع به ثلاثا أو أربع قطع من السكر فسيصبح حلو المذاق •• لكن اذا وضعنا عشرين قطعة فان حلاوته ستجعل النفس تموع ، اننى بالمناسبة أتساءل•• أليس لك من زملاء فى العمل قط سوى الأستاذ منير ؟ ••

ــ طبعا هناك العديد من الزملاء غيره ••

ــ واذن لمـاذا لا يهتم بأمرنا ويقضى بعض مصالحنـا سـواه ؟ ••

ــ وما أهمية ذلك ؟ •• أعنى ما الفرق ؟ ••

ــ طبعا يا أمى هناك فرق •• لو أن مجموعة من زملائك تناوبوا الاهتمـام بأمورنـا فسـيبدو ذلك أمرا طبيعيـا ••

أما لو انفرد بذلك واحد فقط فان هــذا قد يعنى أن له وضعا خاصا عندك .

نظرت اليه « رجاء » بذهول .. كيف تأتى أن يصــل تفكيرا ابن الخامسة عشرة الى هــذا الحد ؟ لكن حديثه أعطاها المفتاح الذى ظلت تبحث عنه من آسابيع لتبدأ مصارحة ولديها بالأمر الذى تم اتفاقها مع « منير » عليه ! ..

ــ الحقيقة أن منير فعلا له وضع خاص .. انه يحبكمــا ويريد أن يكون بمثابة والدكما ، كما أحسست أنــا أيضا أننى فى حاجة الى شريك ..

للحظة بهت الاثنان وهما يتبادلان النظرات .. قال « عادل » بأسى :

ــ كنت أظن ذكرى بابا تكفيك ..

ــ المعنويات شىء هام فى حياة الانسان لكنها ليست كل شىء .. بحر الحياة كثير الانواء .. ولقد أصابنى الوهن وأنــا أجدف وحدى ..

انسحب الاثنان الى حجرتهما دونما أى رد ، ومن خلف الباب المغلق سمعت « رجاء » نهنهة بكاء .. فأسرعت اليهمــا تحتويهما بين ذراعيها ، مرت أيام لم يفتح فيها أحد الثلاثة هذا

الموضوع مرة أخرى .. حتى جاءت والدة « رجاء » وسمع الصبيان صوتها حادا عاليا وهى تحدث ابنتها :

ـ ما شاء الله .. هل يتحكمان فى مصيرك ؟ ! طبعا هما لا يحسان بشىء ينقصهما ما دمت أنت قد انكرت أنوثتك وحملت نفسك فوق طاقتها لكى تكونى لهما أما وأبا .. دعينى أكلمهما لاعرفهما شأنهما ..

صوت « رجاء » الذى كان خافتا ارتفع ليسمعاها تتوسل لأمها :

ـ لا .. دعينى أنا أقنعهما بنفسى .

قال « عادل » حسنا يا أمى طبعا الأمر أمرك .. لقد قلنا رأينا وبعد ذلك أنت حرة فيما ترغبين ..

حتى « منى » الصغيرة لا يعييها التعبير :

ـ تقولين انك لا تستطيعين تحمل مسئولية بيت وأولاد وحدك .. فكيف بالله مرت هذه الأعوام الثلاثة علينا ولم نحس بشىء ينقصنا قط ؟ .. طبعا عدا وجود والدى نفسه فقط ! ..

وعاد « عادل » يغمغم :

ـ لابد ان تقدرى شعورنا .. صعب علينا أن نرى رجلا آخر يحل محل والدنا .. فى كل شىء ..

رغم كل ذلك تم الزواج .. قالت فى نفسها « أطفال وسينسون كل شيء .. بل سيتأقلمون على الوضع الجديد » لكنها كانت واهمة .. ظلا نافرين من الأستاذ « منير » .. بل ومنها أحيانا ، غيرت أثاث غرفتى النوم والمعيشة ربما لا يعودان يشعران بأنه حل محل أبيهما فى شيء .. لكن « عادل » فاجأها يوما :

ـ ماما .. أرجو أن « تخبريه » أن يكف عن هداياه .. عبثا يحاول .. لسنا أطفالا نفرح بلعبة أو علبة شكولاته .. فليوفر على نفسه التعب وعلينا الحرج ! ..

« الحياة لا تعطى كل شيء أبدا » .. همست لنفسها .. « ولابد بجوار السعادة من آلام » .. آلام ولديها تؤلمها هى الأخرى .. بل تشعر بها كما الشوك يخز جنبيها ، لكن السعادة كانت أكبر .. كيف لا وهى تحب لأول مرة فى حياتها ؟ .. طبعا أحبت المرحوم رشدى لكن حبا عن حب يفترق .. رشدى كان ابن عمها الذى عرفته وجالسته وسامرته منذ طفولتها كما الأصدقاء .. قال الأهل .. رجاء لرشدى فأحبته بالايحاء .. كأنه أمر لابد منه أن يتحابا طالما سيتزوجان ، بعد الزواج كان حب العشرة الطيبة ، حبها لمنير كان شيئا آخر .. الحب بكل قوته وبكل ضعفه .. بكل رقته وبكل جبروته .. كما البحر الهادر الذى يجتاح كل السدود .. كما المارد الهائل الذى

يلغى كل ارادة .. هو النور وهو النـار .. هو الخمود وهو اليقظة .. هو الداء وهو البلسم ! لكنها حرصت كثيرا على مشاعر ولديها فكانت دائما فى وجودهما تمنحهما كل اهتمامها ورعايتها ..

كأنما لم تكتف الأقدار فكانت الصدمة الثانية والمروعة فى حياة « رجاء » .. ذات ليلة خرجت مع « منير » لقضـاء سهرة فى أحد المسارح .. كعادة « عادل » و « منى » رفضا الخروج معهما .. قالت « منى » انها متعبة .. لم تمض على خروجهما أكثر من ساعة الا وكانت « منى » تصرخ من مغص فظيع .. طمأنتها الدادة أنه ليس أكثر من لفحة برد وقدمت لها كوب من الشاى الساخن لتزداد الصرخات ، أسرع « عادل » الى التليفون وأخذ يطلب أرقام أطباء عديدين لكنه لم يوفق قط .. فالرقم اما لا يجمع .. أو مشغول أو الطبيب غير موجود . أخيرا تعود الأم وزوجها الذى أسرع بحمل الصبية الى أقرب مستشفى .. لكن الطبيب يبلغهم بكل أسف أن المصران الأعور قد انفجر لتموت « منى » الغالية بعد دقائق ..

تقع الأم منهارة .. ويبذل « منير » كافة ما فى وسـعه للتخفيف عنها ، لكن المصـاب كان أجل من كل عزاء أو مواساة، ثم يجىء « عادل » ليصب على النار المشتعلة فى قلب أمه مزيدا من الزيت .. صرخ فى وجهها :

ـ لو لم تتزوجى لما خرجت فى تلك الليلة وتأخرت هكذا •• ولاستطعنا انقاذ منى قبل أن ينفجر المصران !! ••

ووسط ذهول الأم يترك البيت الى بيت عمه •• معلنا انه ترك المنزل حتى لا يموت بدوره ! وانه لن يعود الا اذا غادره منير نهائيا ! أسبوع كامل والأم تكاد تجن وتتوسل الى العم فى التليفون لكن الأخير كان من غير توسلاتها يحاول اقناع الصبى بالحسنى •• بدون فائدة •• أغلق أذنيه وعقله وقلبه تماما •• حتى لم يملك العم أن صاح فيه :

ـ كان المفروض أن أكون أنا وشقيقاتى الغاضبون من زواج والدتك •• لكننا لم نر فيما فعلت حراما ولا عيبا •• رجاء فى عز شبابها ومن حقها أن تعيش حياتها ، أيضا تمهلنا لنرى تصرفها معك وأختك وكنا نضمر انتزاعكما منها بالمحكمة لو رأينا أى تقصير منها تجاهكما •• اطلاقا •• على العكس •• شاركها زوجها فى رعايتكما والاهتمام بشئونكما •• فماذا تريد أكثر من ذلك ؟ ••

ـ لكن أختى ••

ـ هذا قضاء الله •• ثم خبرنى •• فى حياة بابا •• ألم يكن يخرج كثيرا مع ماما ويترككما فى رعاية الدادة ؟ •• ولو كان مازال حيا •• ألم يكن محتملا أن يخرج مع رجاء فى الأسبوع

الماضى ليحدث ما حدث ؟ أما عن شكواها من بعض الألم قبل خروجهما فلعلك لم تنس أنها كانت دائما تتعلل بذلك كلما رغبت عن الخروج معهما ..

ـ لكننى أنا لم أعد أطيق رؤيته .. سيظل فى نظرى المسئول عن حرمانى من شقيقتى ! ..

رغم كل محاولاته لم يفلح العم فى ارجاع عادل عن تصميمه .. واضطرت « رجاء » أن تطلب من « منير » الطلاق :

ـ لا أبحث الآن من المخطىء .. فاننى فى كل الأحوال لا أستطيع أن أتركه يعيش فى منزل عمه .. فقطعا ستضيق به زوجته وقد تسىء معاملته .. ولا تنسى أن كل ذرية العم بنات ، واذن فوجوده بينهم سيربك نظامهم .. عدا ما سيصيب نفسيته من جراء احساسه بالتطفل على أسرة ليست أسرته ، الا يكفيه أن حرم من والده وشقيقته حتى يحرم من أمه أيضا ؟ .. لم يعد له غيرى كما لم يعد لى غيره .. فلنضم القلبين الجريحين عسى أن يشفى أحدهما الآخر ! ..

كان الأستاذ منير كريما حتى الموقف الأخير .. داس على قلبه ووقع الطلاق عندما رأى اصرار « رجاء » وعاد عادل ليعيش مع أمه .. ولكن أية عيشة ! .. الصدمة الأخيرة المزدوجة جعلتها تروح وتجىء فى المنزل كأنها شبح .. أو جسد سلبت منه الروح ! ..

يبدو أنه كان لابد أن تمر أعوام حتى يدرك « عادل » الى أى حد أساء الى أمه .. حين صمم على أن تترك الرجل الذى تفاهمت معه ، زاد الاحساس تغلغلا فى نفسه خاصة بعد ما التقى فى الجامعة بالزميلة التى أحبها فتصارحا وتعاهدا على الزواج بعد عامين .. حين يبلغ سن الرشـد ويتسلم ميراثه عن والده .. وأيضا يتخرج فى كليته ، العامان فترة زمنية ليست بالقليلة .. مع ذلك فهو دائمـا أبدا مهموم بفكر .. بل لقد راح يحدث نفسـه :

ـ طبعا كل فتاة تحلم فى زواجها أن تستقل بعش تكون هى سيدته وملكته .. فكيف سأترك أمى وحدها ؟ .. عندما طلبت منها أن تترك زوجها وتتفرغ لى .. هل كنت أعتقد أننى أنـا أيضا سأتفرغ لها ؟ .. هذا هو العدل .. فهل يعقل أن أطبقه ؟ بل حتى من الآن ولم أتزوج بعد .. فما أقل الدقـائق التى أجلسها معها ! وما أندر الكلمات التى أتبادلها واياها ! ، ليس معنى هـذا أن حبى لها قد تقلص .. اطلاقا .. فمازالت أعز انسانة الى قلبى .. لكننى لا أجد موضوعات أحدثها فيها.. على عكس أوقاتى مع أصـدقائى .. لو ظللنا معا عشر ساعات لمـا فرغت جعبتنا من الكلمات .. حيث تتحدث لغة مشتركة ، زمان .. فى أيام الجمع .. كنا نذهب الى النـادى .. وكنت أضيق بحديثها مع « منير » .. كنت أود وقتها كله لى .. كنت

أحس بالدفء وأنــا بجوارها كأنها الشمس ترســل الى أشعتها الذهبية ، طبعا الفصــول تتغير كما تتغير مراحل الانسان .. أيام الطفولة هى الشتاء .. وعندما نكبر يصبح الجو ربيعا .. فلا نعود نحتــاج للشمس كثيرا .. وحين يكتمل الشباب يكون الصيف قد حل .. ويصبح الوقوف ولو دقائق فى الشمس يجعل الانفاس تضيق .. تماما مثلما أجلس معها دقــائق بالنــادى فتحدثنى عن مضار التدخين والسهر .. وأهمية المذاكرة .. ثم تسألنى أين عساى أنفقت نقودى .. بل حتى عندما تحدثنى عن عملها ومشاكلها مع زملائها وزميلاتها فيه ! كم مرة تمنيت لو كان أونكل منير لايزال موجــودا ليستمتع بحديثها الشيق هــذا وأنطلق أنــا الى حيث أريد ، على قدر ما كنت أحب الالتفاف حولها وأنــا صغير .. على قدر ما أود التحرر من صحبتهــا الآن .. كشىء استنفد ، أغراضــه بعد أن أخذت ما كنت أبتغيه منها .. مشاعر الأمومة الحنون خــلال فترة احتياجى اليها .. كم أشعر بالخجل من أحاسيسى تلك ولكن .. هل أستطيع أن أكذب على نفسى .. ؟ فى الأعوام الأخيرة كنت أراها تقضى أغلب أوقاتها وحيدة .. وكم أرثى بوحدتها هــذه بل انها وحيــدة حتى وهى معى أو مع بعض الجارات أو معارف النادى العابرات ما أقسى الوحدة انها شعور مرير .. رهيب ، لمــاذا يارب أعميت بصرى حتى أضررت بيدى بأقرب الناس الى وأكثرهم حنانا على ؟ ..

أثناء حديثه ذاك مع نفسه دخلت لتسأله عما به •• فلما نفى وجود شىء قالت وصوتها بشىء بالمرارة :

ــ يعنى ذلك ان أطمئن الى أنه لاشىء هناك يضايقك أو يعكر مزاجك ؟ ••

أحس كما لو أنها ستكمل « كما ضايقك زواجى منذ أعوام ثلاثة فعاقبتنى عليه •• ثم أصدرت فرمانك العالمى بأن تنفصل » لكنها لم تقل شيئا من ذلك ودارت على عقبيها ••

فى اليوم التالى عاد عادل من الخارج مبتهجا •• نادى :

ــ ماما •• ألا تسألبننى من أين أنا عائد الآن ؟

ــ كففت عن هذا السؤال من زمن •• عندما أحسست أنه يضايقك ••

ــ حسنا •• ذهبت الى منزل شقيقة أونكل منير •• أذكره لأنه كان قريبا من منزل عمى •• حيث كنت أذهب اليه عندما تذهبان أنتما اليها ، تصورى أنها تذكرنى ؟ •• سألتها عنه •• أخبرتنى أنه قد سافر الى احدى الامارات بعقد ينتهى هذا العام كما ذكرت لى أنه لم يتزوج •• وأنه مازال يذكر عشرته معك بالخير •• حتى فى خطاباته اليها •• لقد شجعنى ذلك على أن أكتب اليه •• نعم كتبت اليه أطلب عفوه عما حدث منى من أعوام •• معتذرا بحداثة عمرى أيامها وكذلك بأحزانى لفقد أبى

وشقيقتى ، أيضا ذكرت له أننا ـ أنـا وأنت ـ نفتقده ونفتقد أيامه معنا .. ورجوته أن يقوم بزيارتنا فور عودته الى القاهرة لقد قلت لى أمس أننى منذ فترة أبدو مشغول البال .. وكان ذلك حقا .. أحسست بخطئى فى حقك وأردت أن أعتذر اليك .. لكنى خشيت أن يبدو كلامى مجرد كلام .. بعد خطابى لأونكل منير أحس أننى اعتذرت ـ الى حد ما ـ عمليـا ، ان أقصى ما أرجوه أن تعود المياه بينكما الى مجاريهـا .. آه يا أمى .. ليته يعود .

العجــوز والكمــان

عندما اقتربت محطتها •• دارت بعينيها تبحث عن الشاب الذى أعطاها اللفافة لتضعها على حجرها •• حتى يستطيع أن يمسك بالعمود فى سقف الأوتوبيس وسط الزحام الرهيب •• لكنها لم تجده ، كان قد نزل قبلها ناسـيا لفافته معها ، بدت عليها الحيرة وهى تقلب الكيس الورقى الممزق بعض الشىء •• ازداد تمزقه وظهر ما بداخله •• شهقت وهى تهتف فى دخيلتها : كمــان ؟ ! ••

فى ثوان فاضت أحزانها كلها دفعة واحدة •• تشبه كمان علاء تمام الشبه ، بعد رحيله المفاجىء انهارت تماما •• ولم تستجب لأى عزاء أو مواساة •• حتى خشيت بناتها عليها •• وحاولن أن يستجدين بصيصا من الأمل وسط دياجير اليأس •• فألححن عليها بأن تحج الى بيت الله •• عسى أن يخلى الحزن المدمر الذى ملأ قلبها مكانه لسكينة الايمان ••

بعد عودتها بدت وكأن الله قد منحها بعض الصبر فعلا ••

حتى راحت تردد فى كل مناسـبة : « هــذه ارادة الله » ، باستثناء لحظات متفرقة •• كانت تسترجع فى خاطرها ابتسامة علاء الحلوة •• ثم تتنبه الى الحقيقة المروعة •• لن ترى هـذه الابتسامة بعد ذلك أبدا •• الى آخر العمر •• فتحس بيد فى قوة وسخونة الفولاذ المنصهر تضغط قلبها •• وتروح تناجى ربها ودموعها تجرى فى القنوات أو الحفر التى شقتها على وجههـا معاول الزمن :

ـ لمـاذا يارب حرمتنى منه ؟ •• هكذا كان قدره ولكن•• لمـاذا أساسا قدرته له ! ••

فى ذلك اليوم فاضت أحزانها كلها دفعة واحدة ، مع ذلك سارت تحمل الكمـان ، كانت الريح تزمجر وكأنهـا تشاركهـا مشاعرها •• بعزف لحن حزين •• بدأ بايقاع بطىء أول الأمر ثم أسرع فى هوس مجنون ، أحست بالمرارة تملأ فمها •• مرارة لو ألقيت فى نهر النيل لمررت مياهه كلها ! ، لمـاذا الشباب كلهم يستمتعون بحياتهم عدا ابنها ؟ •• يأكلون ويشربون ويضحكون ويحبون •• بل ويعزفون على الكمان أيضا •• وهو •• علاء •• هناك •• تحت الثرى ! ••

كانت قـد اقتربت من رأس الكوبـرى فى طريقهـا الى منزلها •• رفعت الكمان فوق رأسها وهمت بالقائه فى النهر •• يكفى ذلك الشاب أنه يعيش •• يكفيه جدا ، فجـأة رأته أمامها

يرفع يده اليها بضراعة والدموع تملأ وجهه •• أغمضت عينيها ثم فتحتهما لتجد الوجه المندى بالدموع وجه عــلاء ، كم كان يحب كمانه ، ذلك الشاب أيضا لابد يحب كمانه بدوره •• من يدرى كم عانى أو كم عانت أسرته حتى أحضرته له •• ملابسه كانت تشى برقة حاله ••

حملت الكمان ومضت •• كل من رآها فى الطريق التفت ينظر اليها بدهشة •• كان المنظر مثيرا بالفعل •• عجوز ترتدى ملابس الحاجات تحمــل كمانا •• وقد طوقته بذراعيها كأنمــا تحتضنه لكنها لا تلقى بالا اليهم وكأنها لا ترى أحدا قط ، فى منزلها تضــع الكمان على المكتب حيث كان علاء يضع كمانه •• هو أيضا لم يحصــل عليه بسهولة •• رفضت شراءه باصرار رغم تيسرها •• خشيت أن يشغله عن دراسته •• كلية الصيدلة ليست سهلة •• وعدته أن تحضر له ما يشاء بعد التخرج ••

لم تبحث كثيرا فى الدولاب الذى يحوى عددا من متعلقات علاء احتفظت بها تذكارا منه •• كان الكمــان أقرب هــذه الأشياء ، أخرجته من صندوقه الذى صنع من خشب الورد الثمين •• ووضعته فى حقيبة ملابسه الصغيرة ، ذهبت الى المطبخ ثم عادت بفوطة صفراء أخذت تمر بها على صندوق الكمان بحنان •• رغم عدم وجود ذرة تراب واحدة عليه ، حمدت الله أن تنازلت عن تصميمها أخيرا أمام الحاحه واشترت له الكمان •• حتى لايسوت ونفسه متعلقة بشىء حيث لم يكتب له أن يتخرج قط •

ارتفع صوت المؤذن فأسرعت تفتح النافذة حتى يملأ الصوت الرخيم الغرفة .. كانت الريح قد سكنت .. لم يدخل الأذان فقط .. الشمس أيضا .. بعد أن أفلحت فى الافلات من الحصار الذى فرضته حولها السحب ، لم تنس عقب الصلاة أن تقرأ الفاتحة لروح فقيدها الغالى .. ثم اتجهت مباشرة الى التليفون لتطلب برنامج طريق السلامة الذى يعلن عن المفقودات حيث أملته عنوانها .

فى اليوم التالى فتحت الباب للشاب الذى بدت عليه اللهفة .. لكنه ما كاد يلمح كمانه حتى اطمأن .. قدمت له صندوق ابنها الثمين وهى تطلب منه ان يضع فيه كمانه أمسك الشاب بالصندوق يتحسس ملمسه الناعم مبهورا وقد تناثرت على تقاطيع وجهه فرحة عارمة .. مديده يصافحها :

ــ متشكر .. متشكر جدا .. ألف شكر ..

ــ الشكر لا يكون بالكلام ..

هبط قلبه قرب قدميه .. هل تطلب نقودا ؟ .. لم يكن ما معه يكمل الجنيه ! .. قرأت أفكاره فضحكت .. مدت يدها وجذبته من أذنه حتى قربت شفتيه من خدها وهى تقول :

هكذا يكون الشكر .. يا ولد ! ..

شـــبكة نجـــلاء

كالعادة .. اختارنى السـيد رئيس مجلس الادارة لألقى كلمة بالنيابة عن المؤسسة فى المؤتمر الموسع « مصر الغد » ، كان دائما يقول على أننى خير من يعد أى بحث ويرتب نقاطه .. ويغطى كافة زواياه .. أيضا فى نفس الوقت من يعرضـه فيقنع به السامعين ، ويستولى على أعجابهم . قال لى ضاحكا :

أننا نعتبرك من المؤسسة بمثابة الواجهة ..

وتمتمت خجله : ــ أرجو آن استحق فعلا هـذا الاطراء .

أردف : ــ أغـلب المتحـدثين سـيتكلمون عن النواحى الاقتصادية .. من الدعم الى المرافق الى عجز الوحدات السكنية وغيرها .. أننى اقترح عليك موضـوعا جديدا .. لاحظت بحكم رئاستى لأكثر من موقع عمل ان عددا ليس بالقليـل من العاملين أصبح مستغلا للظروف نهازا للفرص من آجل فائدة خاصة أو مصلحة شخصية ، حتى لو كانت على حساب زميل

له أو قيمة من القيم على عكس ما عرف عنا من قديم •• اننا نقدم الآخرين على أنفسنا ••

هتفت : موضوع عظيم فعلا •• فأنا أيضـا اشاركك فى ملاحظة هذه السلوكيات الجديدة علينا •• والتى وان لم تصل الى حد الظاهرة •• ألا أننا نخشى أن تستفحل اذا ما أغضبنا عنهـا ••

على مدى أسبوع كامل •• رحت أبحث وأدرس وأحلل واستنتج •• حتى خرجت أخيرا ببحث واف الى حد كبير ، وفى يوم انعقاد المؤتمر على مرءى من عشرات ذوى الأسـماء اللامعة فى البلد ، ومسمع من آلاف المشاهدين للتليفزيون •• مضيت أتدفق فى حديثى بثقة وأقتدار ، أحسست أنهما استوليا بالكامل على انتباه الحاضرين •• حتى وصلت الى الفقرة التى أوصى فيها بأن مراعاة هـذا الأمر يجب أن تبدأ من البيت والمدرسة •• حيث يكتسب الانسان كثيرا من عاداته خـلال فترة حداثته •• وذلك يكون بالقدوة من ناحية ، ونوع معاملة الطفل من ناحيـة آخرى واذ بى أتوقف عن الحديث •• فجـأة ظهرت أمامى صورة ابنى عادل •• وفى عينيه تلك النظرة الغريبة التى رأيتها فيها فى اليوم السابق ! •• ساعتها أحسست بالضيق •• لكنه كان أحساسا مبهما •• اليوم وأنـا أتحدث عادت نظرته ترتسم أمامى •• للحـال اضـاءت هـذه النظرة أمـام عينى النور

الأحمر •• ودقت على اسماعي جرس الانذار وأطلقت تحت أنفي رائحة الخطر ، ووضعت على لساني طعمــا لاذعا !! ، لكنني استطعت السيطرة على انفعالاتي •• بسرعة مددت يدي لكأس المــاء •• بعد أن شربت عدت أكمل بحثي •

وأنــا أغادر المؤتمر حمدت الله ان وجدت تاكسي بسرعة غير معتادة •• ألفيت بنفسي داخلة ورحت أستعيد ما حــدث أمس •• لم يقل « عادل » كلاما كثيرا •• أيضا القليل الذي قاله لم يكن كلاما معيبا •• كعــادة الأولاد في الالتفاف حول أبيهم عندما يعود وهو يحمل معه بعض الحلوى أو الفواكة . فعلوا أمس •• قال « رشاد » :

ـ لانني قبضت المنحــة اليوم رأيت أن تكون أصــناف الحــلوى أفخم •• هه •• ما رأيكم ؟ •• ما رون جلاســية وفستق محمص •

وهاص الأولاد •• فتح العلبة ، وقدمها لي •• ربت على يده بامتنان :

ـ شكرا •• تعرف انني أسير بمنتهى الدقة على رجيم معين ••

وأنبرى عادل يهتف وهو يغمز بعينه :

ـ يا ماما رجيم ايه ؟ ! •• كلى كلى •• هل تعتقدين أن

بابا سيحضر هـذه الأصـناف كل يوم ؟ •• انها فرصـة •• انتهزيها •• وألقى بالرجيم من خلف ظهرك •• !

ضحك « رشاد » •• لكننى أحسست بالامتعاض •• كان يستطيع أن يختار كلمات ألطف « يا ماما لابد أن تشاركينا •• واحدة لن تفسـد الرجيم •• » مثلا •• بدلا من هذه الكلمات التى تنطق بالانتهازية •• ترى من أين ؟ أو كيف جاءته ؟ •

تكلمت فى بحثى عن القدوة والتربية •• من ناحية القدوة كنت ووالده أفضـل قدوة فعلا •• أما التربيـة و •• و •• نعم •• لا مفر من الاعتراف •• فى سـبيل نصر تافه أردت أن أحققه على عمته تلاعبت بمشاعره •• رشـوته •• بل دفعتـه للابتزاز ! كلمة كريهه لكنها منطبقة على ما كان يفعله معى •• أستطيع التهوين على نفسى بأنه كان يأخذ من أمه •• لكننى أردتها مواجهة حقيقية •• لست منزهة عن الخطـأ •• خاصة وأننى كنت مدفوعة اليه منها ــ أخت زوجى سهير هانم ــ كما يندفع الحديد الممغنط •• لا فـكاك له ولا مهرب ولا أرادة ، بسبب استفزازاتها المستمرة لى •• طبعا رأيتها كثيرا من بدء زواجى •• لكنى لم أعرفها على حقيقتها الا عندما أقامت معنا ذينك الشهرين من سنوات ، جاءت من بلدها وفى نيتها أن تقيم أسبوعا فقط •• لكن « رشاد » الح عليها أن تبقى معى طوال

فترة سفره للخـارج •• وشاركته الالحاح بدورى حتى تنازلت أخيرا وقبلت ••

طوال اقامتها كانت تأتى بتصرفات لم أكن أدرى لها تعليلا فى أول الأمر ، هى التى تختار قائمة الطعام ، الشغالة تأخذ منها الأوامر ، غيرت ما اعتدنا عليه من نظـام حياتنا ، اختارت أفضل ما فى المنزل من أطباق أو سرفيس أو أكواب لاستعمالها الخاص فلا يستعملها أحد غيرها ، تاركة لنا الأدوات العادية ، صممت فى كل مشاويرنا بالسـيارة ـ سـواء كان يقودها « رشـاد » أو « عادل » بعد سفر والده ـ أن تجلس فى المقعد الأمامى •• مقعدى •• وأجلس أنـا بالخلف •• متعللة بأنها تريد أن تتفرج على مدينتنا ـ القاهرة ـ وكأن النوافذ الجانبية ليست بكافية لذلك ! وأيضا أن تنام فى سرير شقيقها الملاصق لسريرى رغم وجود غرفة مستقلة للضيوف •• ولم تكتف بهذا ، بل كانت تلح على فى النهوض للنوم مبكرة رغم تعودى السهر •• بدعوى أن دخولى الغرفة بعدها يقلقها مهما حاولت أن أسير على أطراف أصابعى ، كلما رفض أحد أولادى تدخلها كانت تقول لهم :

ـ ألا ترون كيف أن ماما لطيفة •• تنفذ ما أشير به ؟ ••

عندما كررت هـذه الجملة أكثر من مرة عقبت أنـا :

ـ طبعا أنـا أفعل •• من باب الذوق ••

واذ بها ترد : بل لابد أن تفعلى .. اذا كان زوجك وولى أمرك نفسه يسمع كلامى !

عندما بهت راحت تضحك ، فاعتبرت كلامها مزحة وضحكت بدورى . لكننى بعد الأسبوع الأول استطعت الوصول لتعليل هذه التصرفات .. كانت مريضة بداء الكبر .. والعياذ بالله ! هذا الداء صورة مخففة من جنون العظمة .. تحب أن ترى نفسها دائما فى مقعد الصدارة أو الرئاسة فى كل مكان توجد به ، ومع أى اناس يوجدون معها .. لا تحاول أن تترأس عليهم فقط .. بل أن تحتويهم ! .. النغمة التى تطربها أن تقول على أى شىء .. كبر أم صغر « هذا لى وذلك لكم ! » وكان بالمنزل درجتين من الناس ! وضايقنى هذا منها طبعا .. حتى اكتشفت ما ضايقنى أكثر .. أو على الأصح ما أغضبنى بعنف ، نظرتها لى ، يوما أعطتنا احدى قريباتها موعدا لزيارتنا .. وقبل حضورها فأجابتنى بقولها :

ـ لا داعى أمام شكرية هانم أن تقولى انك صعيدية .. بل سأحاول أنا أن « أدعى » أمامها انك من عائلة عريقة .. حتى لا تشمت بنا حيث كانت تود أن تزوج ابنتها لرشاد !

لذهولى من كلامها لم أستطع الرد للحال .. وقبل أن أجد لسانى لأنطق جاءت الضيفة ، طيلة وجودها وأنا أغلى .. هل لأننى لا أفعل مثلها وأظل ألوك بمناسبة وغير مناسبة عن

أصالة أسرتى وعظمتها ومكانتها فى المجتمع ــ رغم أن أسرتى لا تقل عراقة عن أسرتهــا بل أنها تزيد ــ ظنت أننى من أسرة بسيطة ؟ بينما أنــا لم أكن أحب ذلك التفاخر .. تواضعا منى من ناحية .. ومن ناحية أخرى لاقتناعى بأنه لا فضل للانسان فى أصــالة أسرته .. من ثم كنت عندما أريد الفخر بنفسى ــ ونادرا جدا ما أفعل ــ كنت أذكر قدراتى العقلية ومكاتتى فى عملى ومواهبى ، ومن يدرى ربما أكد تلك الفكرة الخاطئــة لديها معاملتى الرقيقة لها ، وتغاضى عن عجرفتها وجليطتها . كنت آخذ نفسى بذلك من أجل شقيقها الذى أحبه ويعزنى هو من كل قلبة .. ثم لأنها ضيفة لدى ، فوجب اكرامها واحترامها .. لكنها هى فسرت طيبتى على أنها خنوع ، وتواضعى على أنه رقــة حــال !

غاظنى أنها لم تقل ذلك لى أثناء شجار فتكون هفوة لسان وقت الغضب .. مثــلا أو من خلف ظهرى فتــكون تشنيعــا واغتيابا .. لكنها قالته فى مواجهتى وكأنها تقرر حقيقــة معروفة ومفروغا منها !! ، طبعا ناقشتها بعد خروج الضيفة فكان ردها الغبى وهى تضحك باستهانة :

ــ ترى الصعايــدة دائمــا يحمــلون القصعة فى بنــاء العمــارات !!

بعدهــا رحت أحاول دائما أن أدخــل فى حــديثى خبرا

أو معلومة عن جدى الباشا وقصره الفاخر فى البلد .. وخـالى المحافظ .. وعمى وكيل الوزارة الخ الخ .. أيضا حاولت أن أوقفهـا عند حـدودها كضيفة فى منزلى .. لكنهـا ظلت على عجرفتها ، كل ما استطعته أن عدت أجلس فى مقعدى بالسيارة بعد أن أدعيت أن ساقى تؤلمنى ، ولهذا فلابد أن امددها والمقعد الخلفى لا يسمح بذلك .. بل اننى صحبتها معى وذهبت الى طبيب مشهور .. دفعت له أجره الكبير كى يشخص حالة ساقى ويصف العلاج !!

كان باستطاعتى أن أستعيد أضعاف أضعاف هذه الأفعال السخيفة لها .. لكن هـذا الأمـر لم يكن موضـوعى الملح الهام .. وكفتنى هـذه الأحـداث لاتذكر كم كرهت هـذه السيدة .. كرهتها مرتين .. مرة لمـا فعلته بى ومرة لمـا فعلته أنـا .. عندما هبطت الى مستواها فى التفاهة ورحت اتباهى بالأجداد .. وعندما كذبت حتى أستعيد مكانى فى السـيارة أن هذا يفسر كيف أن بعض عملاء أى حاكم قد يكرهونه رغم ما يستفيدونه منه .. انهم فى قرارة نفوسهم متألمون لمـا يزاولونه من نفاق خشية بطشه .. فيحقدون عليه بسبب نفاقهم هم ! ..

رغم مرور أعوام لم يتغير شعورى تجاهها .. لذلك كانت صدمتى شديدة عندما اختار زوجى ابنتها نجلاء من بين جميع فتيـات الأسرة ليقترح خطبتها لعادل .. أبننا الأكبر ، طبعـا

أنا عارضت للوهلة الأولى .. ورحت أعيد عليه بعض تصرفاتها.. فأخذ يضحك عاليا وكأننى أروى له بعض النوادر الطريفة .. قال وهو يتصنع الدهشة :

ــ مازلت تذكرين هذه الأمور الصغيرة ؟ .. سيدة بمثل ثقافتك وحظك من التعليم ينبغى أن تسقط بعض الهفوات لأخرى محدودة التفكير .

ــ لكنك انت لا تسقط لها هنات فقط بل تسير حسب أوامرها ! .

ــ ولا أوامر ولا شيء .. كل الأمر اننى تعودت سماع توجيهاتها منذ كنت طفلا وكانت هى تذاكر لى .. ثم ما شأننا بالأم ؟ هل لك اعتراض على البنت نفسها ؟ .

وفى الحقيقة لم يكن فى « نجلاء » أى عيب .. جمال ورشاقة وأناقة .. خفة دم وذكاء وأخلاق رائعة الخ الخ ، لكن كل ذلك لم يقنعنى .. وحب أمها للسيطرة والتسلط ؟ ستحتوى الولد كما أرادت فى يوم أن تحتوينى ، ابنى يصبح ألعوبة يدها لا رأى له ولا شخصية ؟ .. وربما ولا أسرة أيضا سواها ؟ .. لا .. وألف لا ..

فرح « عادل » بالاقتراح .. لكننى من ناحيتى لم أسكت كلما حاول والده تثبيت هذه الفكرة فى رأسه من ناحية ،

حاولت أنـا اخراجها منها من الناحية الأخرى .. حتى تذبذب الولد ولم يعد فى مقدوره أن يكون فكرة أو يستقر على رأى ..

ثم جاءت لعبتى الكبرى .. فى الاجازة جاءنى « عـادل » ليخبرنى بأن عددا من زملائه سيسافرون للخـارج .. ويريد هو أن يسافر مثلهم .. قـال أن المدخر باسـمه فى دفتر التوفـير سـبعمائة وخمسون جنيها .. فـاذا دفعت له مثلها اسـتطاع السفر ، لكننى رفضت الفكرة من أساسها .. بهدلة وقلة قيمة وتضييع فلوس ، بعدها بأيام فوجئت برشاد يقول له :

ـــ اننى اقترح تقديم الشبكة لنجلاء هـذه الاجازة .. سأكمل لك مدخراتك الى ألف جنيه لتكون الشبكة قيمة .. فما رأيك ؟

واندفعت قائلة : لكن « عادل » أبدى لى رغبته فى السفر الى الخارج هـذا العام مثل باقى زملائه .. ووعدته أن أعطيه مثل مدخراته .. كما وعدته بأن أبذل جهدى لاقناعك بالموافقة على سفره .. !

طبعا تمسك « عادل » بعدها بالسفر .. وظل يلح على والده وأنـا أساعده حتى وافق ، وأجلنا موضوع الشبكة : وقتها لم أر فى هذا التصرف غضاضة .. لكننى الآن ـــ وعلى

ضوء بحثي أنا نفسي وليس بحث شخص آخر — أرى رأيا مختلفا ..

الأخطر والأكثر خطأ ما تلا ذلك وكان السبب أيضا شبكة « نجلاء » .. فى الاجازة التالية جاءنى عادل لينبئنى برغبته الشديدة فى اقتناء سيارة تساعده على الذهاب الى كليته فى مواعيد المحاضرات ، كما تساعده فى حمل لوحاته وأدواته الهندسية التى يخشى عليها وهو معلق على سلم الأتوبيس .. وطبعا يريد منى مبلغا يوازى الألف جنيه المودعة بدفتر توفيره — وأغلبها اكتسبه من عمله بالخارج — واعترضت :

— غير معقول أن أظل أعطيك ألفا وراء ألف .. اننى لن أستطيع أن أعطى اخوتك مثلك .. فيكون هذا غير عدل منى ، كذلك ليس المهم فى السيارة ثمنها فقط .. لكن أيضا مصروفاتها فبدخلنا ليس من اليسير الانفاق على سيارتين ..

هز كتفيه : اذن لن أجد أمامى غير الموافقة .. اذا ما اقترح بابا أن اشترى بمدخراتى شبكة لنجلاء ..

ووجدتنى اهتف : عموما أنا لا أرفض فكرة السيارة تماما .. دعنى أفكر ..

وما أسرع ما رحت أعرض الفكرة على « رشاد » من قبل أن يقترح هو أية فكرة أخرى عملا بالمثل القائل « أن خير وسيلة للدفاع هى الهجوم » . وأمام الحاحى والحاح « عادل » لم يجد « رشاد » بدا من الموافقة !

التاكسى دخل ميدان رمسيس وبدأ يجتازه .. لم تستطع الحركة الهائلة بالميدان أن تبعد ذهنى عما يشغله من تفكير .. قلت لنفسى .. اذا لم يكن هذا ابتزازا فبم يسمى ؟ ، انها أمور صغيرة نلعب بها ونحن لا نعرف اننا نلعب بأولادنا أنفسهم .. وسلوكياتهم ومقدراتهم وهم بعد صغار كالعجينة اللينة ، ثم أروح أنصح الناس فى كيفية أبعاد أولادهم عن الانتهازية والاستغلالية ..

عدت أعض على شفتى حتى كدت أدميها .. كيف وقعت فى هذا الخطأ الجسيم ؟ .. تألمت لهذا ، لكنى فى عمق الألم تذكرت الآية الكريمة « قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله » ..

نعم .. من رحمة الله ان تنبهت لهذا الخطأ قبل أن يستفحل .. كما قال الأقدمون لا ضير أن يخطى المرء .. لكن

الضير كل الضـير أن يصر على خطئـه •• كان من الممكن اذا استمررت فى تصرفاتى هـذه ــ أن يصبح ابنى اتهازيا بشعا •• يطبق ما تعلمه فى المنزل على عمله عندما يكبر •• مازال صغيرا بعد •• أستطيع أن أمحو ما ترسب فى نفسه عندما يرانى أغير من تصرفاتى معه كلية •• فيما يختص بموضوع « نجلاء » أو أى موضوع آخر •• وأنـا مصممه ــ ان شاء الله ــ أن أفعل •

قبل أن تدق الثانية عشرة

انتزع منى خالى كلمة الموافقة وأسرع بالذهاب •• زعم انه يريد أن يلحق بعزمى قبل أن يخرج الى هنا أو هنـاك •• لكننى أحسست أنه يخشى أن أعـود فاغير رأيى •• حيث لم أوافق الا بعد جدل كثير والحاح طويل منه ومن أمى •• كرر أكثر من مرة « معه حق أن يغضب •• لو كنت مكانه لمـا وسعت الدنيا غضبى •• اذا أحسست أن زوجتى تفضـل عنى شفة ! . مجموعة من الطوب أهم عندك من رجلك ووالد طفلك ؟ ! • لم أكن أتصـورك بهذا الجمود العاطفى أبدا يا سـناء » . بعد انصرافه رحت أفكر فى كلامه •• لم يكن يتصورنى بهذا الجمود العاطفى •• ولا أنـا نفسى كنت أتصورنى كذلك ولكن •• لكننى أيضا لم أكن أتصور أن تكون حياتى الزوجية على هذا المنوال ، عندما يتغير انسان هل يكون هو السبب •• أم الظروف والأشخاص المحيطون به ؟ ••

طوال فترة دراستى وأنـا أحلم بعشى السعيد المنتظر ••

دائما تخيلته ممتلئا حتى عتبته الخارجية بالمشاعر والاحاسيس ..
أبدا لم أتصوره مليئا بالاثاث والرياش والكماليات ، ما كان يعنيني بالدرجة الأولى هو الانسجام والتفاهم .. الحب والحنان .. كانت نفسيتي كما الأرض التي تشققت لفرط عطشها الى الماء .. وكان مائي هو الحنان .. حرمته صغيرة .. فقدت أبي ولم أبلغ العاشرة .. وفقدت معه أعمامي وعماتي وأسرته كلها ، بسبب خلافات الميراث .. حتى أمي .. ماذا أقول ؟ .. لم أحس بحنانها اطلاقا .. هل كان هذا الجدب طبيعة لديها أم غاضت ينابيع عاطفتها بعد ما لاقته ؟ .. ترملت وهي في عز الشباب .. ثم كان الجحود والبغضاء والمشاكل والقضايا ممن كان المفروض أن يساعدوها في محنتها .. هل يفعل المال في النفوس كل هذا ؟ كان المنتظر أن يعوضني عماي عن فقد أبي .. فاذا بهما يقفان ضد أمي وضدي أيضا في المحاكم .. وتطول القضايا وتتفرع حتى تنتهي بالقطيعة الكاملة ، أين اذن وجدت أمي الحنان حتى تمنحه لي ؟ .. طبعا فاقد الشيء لا يعطيه ..

ثم كان حظي الغريب .. أم هي سخرية الأقدار ؟ من بين كافة زملائي بالكلية وجيراني وأقاربي لم يخفق قلبي سوى لطاهر ابن عمي ! ، الذي رأيته بضع مرات في منزل والدته المطلقة ـ وكانت تتزاور معنا ـ ثم بدأنا بعد ذلك نتقابل في الخارج .. حتى علمت أمي ، وكان يوما مشهودا ..

لو كنت أعلم مصيرى بعد ذلك لما وافقت أمى ، عرض على « طاهر » أن نتزوج دون علم أسرتينا لنضعهم أمام الأمر الواقع .. وأكد لى أن جميع الزيجات التى تمت بهذه الشكل انتهت برضاء الأسر .. فى حالتنا سيستتبع الرضاء المصالحة بين الأسرتين . لكنى رفضت .. فماذا يكون مصير جزيرة حب تتلاطم حولها أمواج الكراهية ؟ .. أيضا أمى .. هل بهذه الطعنة أكافئها على تضحيتها من أجلى طوال هذه الأعوام ؟ .. رفضت كل من تقدموا لها لتتفرغ تماما لتربيتى ، يوم علمت بعلاقتى بطاهر رأحت تصرخ بطريقة لم أشاهدها عليها من قبل :

ـ اتناصرين أعدائى ! لقد سقونى العذاب ألوانا .. شقاء عمر والدك أخذوه .. أيأخذونك أيضا ، بدأت تصبحين عروسا . كادت فرحتى بك تنسينى المرارة التى جرعونى إياها أكثر من عشرة أعوام .. فتأتين الآن لتنكأى الجرح ! .

لم أتحمل عذاب أمى وبادرت أقطع علاقتى بطاهر ، لم تمض شهور حتى تقدم « عزمى » .. وأبلغت أمى برفضى رغم الحاحها .. قلت لها بهدوء قاطع :

ـ لبيت لك رغبتك وتركت « طاهر » .. وفى مقابل ذلك ألا أستحق أن تحققى لى رغبتى فى عدم الزواج الآن ؟ .

آخر ما كنت أتوقعه من أمى أن تكذب على .. قالت لى يوما ببراءة :

ـ سأذهب عصر اليوم الى « حميدة هانم » لاهنئها على خطبة ابنها « طاهر » .. ألا تأتين معى ؟

طبعا اعتذرت ولكن .. رغم اننى كنت أعنى تماما ما قلته لطاهر وأنا أنهى ما بيننا الا أننى أحسست وأمى تقول لى ذلك كأن خنجرا مزق قلبى .. الطعنة أصابت كبريائى أيضا . وكان لابد أن أرد .. قبلت خطبة « عزمى » ، قدرت أننى خلال فترة الخطبة سأتعرف عليه وبالتالى على امكانية التفاهم بيننا .. لكن مع الأسف لم تكن هناك فترة خطبة .. كان قادما فى اجازة من العراق ـ حيث يعمل ـ من أجل أن يتزوج ويعود .. وفى يده العروس الموعودة !

لذلك بدأت أتعرف عليه وأنا زوجة له .. وأقيم معه بعيدا عن بلدى بأميال وأميال ، لم يكن سيئا جدا .. بل ربما كان منتهى أمل فتيات كثيرات أن يكن شركاء حياتهن رجالا عمليين لهذه الدرجة .. كل شىء عنده محسوب بالدينار والفلس .. قبل أن يحول الحسبة الى الجنيه والقرش .. أين يجىء ترتيب المعنويات عنده ؟ . ربما فى الدرجة العاشرة .. وربما لا مكان لها على الاطلاق ! .

بذل « عزمى » مساع كثيرة عند عدد من معارفه هنــاك حتى أوجد لى عملا •• ممتازا بحق •• مذيعة فى الاذاعة بمرتب محترم •• ويسر عامان •• هــل كنت سعيدة ؟ •• هــل كنت تعيسة ؟ •• لا هــذا ولا ذاك ، لم أكن تعيسة لاننا وقــد رتب « عزمى » بنظام صارم كل ما له وما عليه •• وما لى أو على من عمل ومســئوليات ونفــاق •• لم يعد هنــاك ما نختلف عليه •• لكنى أيضا لم أكن سعيدة •• لم تكن هــذه الحياة الزوجية التى حلمت دوما بها •• أبدا •• كنت أذهب الى الاذاعة لأحس أننى موظفة بها بين عدد من الزملاء •• ثم أعود الى البيت لأحس أيضا أننى موظفة به •• بنفس القدر ونفس المشاعر •• أو على الأصح نفس عدم المشاعر •• الفارق الوحيد كان فى عدد الزملاء •• فى المنزل زميل واحد •• لكن هــذا الفارق لم يكن ذا بال ! ••

وجاء الطفل الأول بعد أقل من عام •• لا أدرى فيم كانت هذه العجلة ؟ ، بعد اكتمال العــام اقترحت عليه أن نسافر الى القاهرة فى اجازتنا •• لكنه اعتذر بأن عقده مع الشركة ينص على أن تقدم له تذاكر السفر مرة كل عامين •• فاذا نحن سافرنا الآن فسيكون على نفقتنا وهو أمر لا داعى له بالمرة ! •

صبرت على مضض •• ويعلم الله كيف مر هــذان العامان، رغم غضبى من أمى قبل ســفرى عندما علمت باختلاقها قصــة

خطبة « طاهر » .. الا أننى نسيت كل شيء عند لقائها .. فلم أجد فى قلبى ســوى الفرحة الخالصة برؤياها ، كم أوحشتنى.. وكم أوحشنى خالى وأولاده .. وصديقاتى و .. مصر .. بكل شبر فيها ، أما أمى فكانت فرحتها بوائل فرحة عارمة .. يا الله !.. بعد كل هــذا الجدب تتفجر عندك بعض المشاعر ؟ ..

ثم كان اليوم الذى بدأت فيه المشكلة .. بعد أيام من عودتنا سألتنى أمى :

ـ هل استطعت ادخار بعض المــال يا « سناء » من أجل تشطيب شقتك ؟ .. كل الملاك تقريبا شطبوا شققهم ، حتى تكون جاهزة عندما تنهيان عملكـما بالخـارج وتعودان للاستقرار فى مصر .

ضحك « عزمى » ساخرا : هــذه الشــقة « التحفــة » المنزوية فى منطقة مقطوعة يقتل بها القتيل فى عز النهار ؟ ان من يسكنها لابد أن يكون مستعدا للحياة وهو فى غنى عن أشــياء كثيرة .. قــد ينساها وهو يصحب معه اليها زاده وزواده .. ورأيى أن أى قرش يصرف فى تشطيبها خسارة لا داعى لها ! ..

ضحكت أمى : تقول هذا حسب رؤيتك لها قبل سفرك .. لا تعلم ما تم فى هــذين العامين .. الشارع المنزوى ، أصبح الآن لا يقل عن شارع الهرم الرئيسى .. بعد أن مهدوه وأطلقوا

عليه شارع فيصل .. وما أسرع ما أقيمت به العمارات وما افتتح فيها من بوتيكات ومطاعم وصيدليات الخ الخ ..

فى اليوم التالى ذهلنا فعلنا عندما رأينا منظر العمارة والشارع والمنطقة كلها ، ولم أفهم لحظتها سر هذه اللمعة التى برقت فى عينيه ، أستأذن لزيارة أسرته وعاد آخر النهار بفكرة غريبة .. طلب أن أبيع له شقتى .. التى كانت أمى قد اشترتها بآخر ما بقى لى من ارث أبى .. بعد أن استولى أعمامى على أغلب التركة ، قال ان كرامته لا تسمح له أن يقيم فى شقة تمتلكها زوجته .. حيث هو من أسرة ريفية ترى فى ذلك عيبا كبيرا ! ، ورفضت طبعا :

ـ هذه الشقة هى كل ما خرجت به من الدنيا .. فكيف أتخلى عنها ؟ !

قال وكأنه كان قد أعد كل ردوده مسبقا : بل من صالحك بيعها .. حيث لن يتكلف تشطيبها أقل من ستة آلاف جنيه .. وهو تقريبا نفس المبلغ الذى استطعت ادخاره من عملك فى العامين الماضيين ، واذن فمن أين ستدبرين ثمن الجهاز ؟ ان أبسط جهاز هذه الأيام لا يقل عن اثنى عشر ألفا .. فاذا أعطيتك الثمانية آلاف ثمن الشقة على المبلغ الذى معك ..

ساعتها شهقت وأنا أقاطعه : وهل تساوى الشقة الآن

ثمانية آلاف ؟ .. لقد دفعت فيها هـذا المبلغ حين كانت المنطقة خلاء .. الآن تساوى أكثر من عشرين ألفا .

ابتسم ابتسامة صفراء : ما شاء الله .. هل تكسبين منى ؟ ! كان المفروض ونحن زوجان أن تغيرى العقد الى اسمى دون أن تأخذى منى مليما .. فمالى هو مالك ، لكنى سأدفع لك هـذا المبلغ لحاجتك له للجهاز .

قلت بحنق : عندما طالبك خالى بألفى جنيه مهرا .. ظللت « تفاصل » حتى قبلنـا ألفا ... اشتريت بهـا بعض الملابس والبياضـات قبل سـفرنا .. والآن تطالبنا بجهـاز يسـاوى اثنى عشر ألفا ؟ .

رد ببرود : الألف منذ عامين يساوى ثلاثة الآن .. ولو أنكم كنتم مستعدين أيامها ما كلفكم الجهـاز أكثر من خمسة آلاف .. كان التأخير بسببكم ، فعليكم تحمل نتائجه !!

كدت أجن لمنطقه البشع .. لكننى لم أتخـاذل .. قلت بتصميم :

ــ وما حاجتنا للجهاز الآن ؟ سأدفع ما معى حاليا لتشطيب الشقة ، وبعد عامين تاليين بالعراق أكون قد أدخرت مبلغا آخر للجهاز .. أو ربما اشتريت أغلبه من هناك بسعر أقل .

قال بهدوء : ومن يضمن سفرنا ؟ .. كان هـذا ما اتفقت

عليه مع شركتى بالفعل .. لكننى عائد الآن من عند طبيبى الذى هالته حالة مرارتى .. حتى لقد أكد على بعدم السفر ثانية .

ألجمتنى هذه المفاجأة حتى لم أستطع أن أرد للحال .. وعاد هو يعزف على نغمة كرامته المزعومة :

ـ ماذا يقول الناس عنى اذا علموا اننى أقطن فى ملك المدام ؟ ربما أشاعوا أيضا انك تنفقين على ! .

ـ ومن أين سيعلم الناس ؟

ـ كيف ؟ .. والايصـالات والعوايـد والبـواب .. الخ الخ ..

ـ حسنا .. لم يجبرك أحد على السكن فى ملكى .. اترك لى هـذه الشقة أؤجرها مفروشـة وجهز أنت لسكنانا شـقة أخرى .

ـ وهل هذا معقول ؟ . الكل يعرف عذاب البحث عن شقة .. فكيف أدور فى هـذه الدوامة والشقة موجودة ؟

كدت أبكى : اسمع يا « عزمى » .. لقد فتحت عينى على أعمامى يستولون على ميراثى .. ولن أسمح بتكرار الأمر فأدعك الآن تستولى على آخر ما بقى لى ..

قال وبراءة الاطفال فى عينيه : أنـا استولى ؟ ! ما هـذا

الذى تقولينه يا « سناء » ؟ .. لكان كلا منا فى جانب ، الشقة وهى باسمك شقتنا كلانا .. وهى باسمى شقتنا كلانا التى سنقيم فيها مع أطفالنا .. اننى أنـا الخـاسر فى هـذه العمليـة .. ولولا حرصى على كرامتى لقبلت الوضع كما هو ..

لم أرد فاذا به يخرج عن هدوئه .. صرخ :
ـ رفضـك هذا لا يعنى سـوى شىء واحـد .. انك لا تثقين بى ولا باستمرارية حياتنا معا ، فكيف أستطيع أن أعيش مع شريكة لا تحس أن شركتها معى هى شركة العمر .. مع زوجة لا يهمها أن تصـان كرامتى أو تبدد هباء .. مع امرأة ترى أن الشقة أغلى منى ؟ !

قام فجـأة وأخذ يجمع ملابسه فى حقيبة .. قالت له أمى باستنكار :

ـ أتترك سناء ووائل من أجل خلاف مادى ؟ ..

قال وهو يقبل وجنتيهـا ويديها : معقول ؟ .. أخاصـم « سناء » من أجـل سبب تافه كهـذا ؟ .. وحتى لو خاصمت « سناء » فلا أقدر على غضبك أنت أبدا .. انك لا تعلمين مقدار معزتك عندى .. أنـا لا أم لى فاعتبرتك أما ، وأنت لا ابن لك وأصبحت الآن لك ابنـا ، كل ما فى الأمر أن والدى واخوتى

عتبوا على اقامتى بعيدا عنهم بعد طول الغياب .. لذلك رأيت أن أقيم معهم بضعة أيام .

قلت لأمى بغضب : لو لم يترك المنزل لربما وافقت على طلبه ، كأنه يهددنى .. هو أو الشقة .. وأنـا لا أقبل التهديد.. حسنا .. لقد اخترت الشقة !

ولم تعلق أمى .. كانت تبدو ممزقة ، فى اليوم التـالى جاء .. ومعه بعض الفاكهة لى واللعب لوائل .. وكالعادة قبل أمى ، وظل على ذلك حوالى أسـبوع .. يحضر كل يوم .. أحيانا يمكث معنا بالمنزل .. وأحيانا يصحبنا لقضـاء اليوم معا فى النـادى .. حتى كان امس .. جلس بجوار امى وسـألها عما قررناه بخصوص الشقة .. لانه يريد ان يبدأ فى تشطيبها .. ونبدأ نحن أيضا فى الجهاز .. حتى نستقر ، ثم أنهى حديثه :

ــ هل تكره « سناء » ان تجد زوجهـا معتزا بكرامته واسـمه ومركزه أمـام النـاس ؟ .. على العكس كنت أظن ما يسوؤها أن تراه يفرط فى هذه الكرامة ويقبل ان تداس بالأقدام .. عموما الموضـوع طال .. لذلك أريد ردا نهائيـا فى الغد .

فى الصباح بادرت امى باستدعاء خالى .. وجلسا هـا الاثنان معى .. بدأت أمى الكلام :

ـ تذكرين يا « سـناء » حديثـك يوم آخذ « عزمى » ملابسه ؟ .. لقد قلت انك ربما كنت توافقين على بيع الشـقة لو لم يترك المنزل .. ظننت ساعتهـا انه يهددك بعـدم العودة ويضغط عليك ، ما رأيك الآن وهو يحضر كل يوم ؟ .. لا يبدو من تصرفاته انه يضعك فى كفة والشقة فى كفة .. أبدا .. على العكس تصرفاته هذه الأيام تظهر بجلاء مدى حبه لك واهتمامه بسعادتك ! ..

ضحكت ساخرة : وهو بهذا الحب وذلك الاهتمام يضغط أيضا .. فقط يغطى القبضة الحديدية التى يضغط بها بغطـاء من الحرير الناعم البراق ..

ـ لا .. لا .. تظلمينه يا « سـناء » .. انك تظلمينـه جـدا ..

بعد ذلك راحت هى وخالى يتناوبان الكلمـات فى محاولة للتأثير على :

ـ حذار يا سناء .. زوجك وابنك .. لا تجعلى أعمامك وعماتك يشمتون فينا .

ـ تربيت يتيمـة .. ولم يكن فى يدنا عمـل شىء .. تستطعيين تجنيب « وائل » نفس المصير .. بم ستردين على ابنك عندما يكبر ويسألك لمـاذا حرمتنى حنان أبى ؟ ..

لكن حديثهما على العكس آثارنى .. صرخت :

ـ معنى كلامكما أن زواجنا سيتحطم لو لم أتنازل له عن الشقة .. كيف أقبل أن أقـدم هـذه التنازلات ؟ . لكأننى أرشوه كى يتفضل ويبقينى فى عصمته ! .

هتف خالى : لكن « عزمى » لم يقل شيئا من ذلك قط .. نحن اللذين نخشى أن يؤلمـه رفضـك و .. فيغضب و .. قد .. يـ ..

قاطعته أمى : لكل شيء وجهتا نظر .. لمـاذا تنظرين أنت الى الموضـوع من هذه الزاوية ؟ لمـاذا لا يكون « عزمى » من طراز الرجـال الذى يرضى غروره احساسه بأنه هو الذى يوفر لأسرته كل شيء .. من المأكل والمسكن وحتى الأمن والحماية ؟ لمـاذا لا يكون الأمر فعلا بالنسبة له مسألة كرامة ومحك للثقة والاعزاز .. وطبعا رفضـك جرح اعتداده بنفسه .. وهو أمر كفيل بأن يدفع أى شخص لتدمير أى شيء ..

غريب أمر أمى .. كانت تشاركنى المعارضـة بشدة يوم أن فاجأنا بطلبه العجيب .. ما بالها الآن لا تكتفى بالموافقـة .. بل وتلح على فى القبول ؟ .. هل صدقت ملاطفاته لى فعلا ؟ . أم وجدت فى بيعى للشقة الحل لعجزها عن تدبير جهـازى ؟ . أم أنها تخشى شماتة أسرة أبى ؟ . أم هى ترانى بكل ظروف كمثل

الغريقــة •• على أن أتمســك بعــزمى حتى ولو لم يــزد عن قشاية ؟ • أم •• أم ؟ •• لست أدرى ، عموما كيف أتوقــع معرفة سبب تغير موقف أمى •• اذا كنت لا أستطيع تعليل سبب تزعزع موقفى أنــا •• رويدا بدأت لهجتى فى الرفض تلين ! ••، هل اقتنعت بحجج أمى وخــالى ؟ أم بدأت أتجاوب مع دفء مشاعر « عزمى » وأنــا المقرورة من طول افتقادى للمشاعر ؟ ، أجل لمــاذا أظنه يمثل على •• وهو الذى ما رأيته يمثل قط ؟ •• حتى المجاملات البسيطة التى نقوم بها جميعا لا يفعلها هو ، أما لمــاذا لم أر هــذه المشاعر خلال عملنا بالخارج فقد خمنت الرد قبل أن يجيب هو عن سؤالى هــذا :

ـ هناك يستغرقنى العمل لدرجة الارهاق •• هنا لم تجد مشاعرى عناء فى الظهور على حقيقتها والانطلاق على سجيتها ••

فجأة حدث شيء •• دق جرس الباب •• وأسرع « وائل » يجرى ناحية « الباب » وهو يصيح بفرح :

ـ بابا •• بابا ••

أثناء جريه تعثر ووقع لتصطدم رأســه برجل المــائدة ••

لكنه لم ينخرط فى البكاء كعادته كلما آلمــه شيء مهما صغر •• ما أسرع ما اعتدل وراح يعاود الجرى صــوب الباب وهو يكرر نداءه :

— بابا •• بابا ••

لم يكن « عزمى » هو القادم وانما المكوجى ، عند ذلك بدأ « وائـل » يبكى بشـدة مناديا من خـلال بكائـه نفس النداء :

— بابا •• بابا ••

مرافعات طويلة بليغه ألقاها كل من خالى وأمى •• لكنهـا لم تستطع اخراج كلمة الموافقة من فمى •• وفعلت ذلك كلمـة واحدة من ابنى ! ، وما كاد خالى يسمعها حتى نهض مستأذنا •• متعللا بأنه يريد أن يلحق بعزمى ليخبره بموافقتى •

حملت ماما « وائل » ودخلت به غرفتها لتضعه فى فراشه ، ودخلت أنـا الى حجرتى ورحت فى تفكير طويل •• حول كلمة خالى عن جمود مشاعرى وأسـباب هذا الجمود •• قطع تفكيرى جرس الباب •• كان « عزمى » هـذه المرة •• قبلنى بحرارة •• ثم قال بابتهاج :

— طبيبى وجد حالتى قد تحسنت كثيرا على العلاج •• لذلك سمح لى بالسفر •• هاتى جوازك كى أجدد التأشيرة •

دهشت •• ضحكت فى داخلى وآنـا ذاهبـة لاحضـار الجواز •• « ترى هل كان الذى حسـن حالتك دواء دكتور شاكر أم أخبار خالى توفيق ؟ »

لم يغب « عزمى » كثيرا بالخـارج .. لكنه عندما دخل للمرة الثانية لم يقبلنى .. لا قبلة حارة ولا باردة .. قال بلهجة رسـمية :

ـ أريد أن أتحدث معك فى مكان هادىء ..

دخلنا الصالون .. بادرنى :

ـ كنت بعيدة النظر حين رفضت نقل ملكية شقتك لى .. طبعا أحسست أن زواجنا ليس زواجا موفقا بالمرة .. ولن يكتب له الاسـتمرار ، ولست أدرى متى فطنت لذلك .. لكنى أنـا أحسست به من أول شهر .. لم يحدث بيننا أى حب أو حتى توافق أو تفاهم أو انسجام .. لكن الغريب أنك رغم ذكائك الذى جعلك تستشفين ذلك ، فانه لم يساعدك على فهم شىء آخر شـديد الأهميـة .. لقد كنت أنـا الذى صحبتك الى العراق .. وأنـا الذى أوجدت لك هـذا العمل الممتاز .. بعقد شخصى وليس باعارة تنتهى فى موعد معلوم .. أى انك تستطيعين الاستمرار أعواما وأعوام .. تحصلين فيها على عشرات الآلاف .. فأين حقى فى هـذه الآلاف ؟ .. أدرى طبعا أن شقتك تساوى الآن عشرين ألفا .. وعندما عرضت عليك دفع ثمانيـة آلاف كنت مقتنعا أن ذلك الفرق هو نصيبى المعلوم فى مكاسبك من عملك ! .

كدت أصعق وأنـا أسمع حديثه . فتحت عينى على سعتهما

كما فتحت فمى •• لكنى لم أستطع النطق •• واستطرد هو بدون توقف يكمل بكلمات كما دقات المطارق •• بينما تلفنى حلقات تتسع وراء دوى الدقات :

ـ ومادمت متمسكة بالشقة فاذن أعطينى حقى نقدا •• ولن أطلب اثنى عشر ألفا فأنا أعرف انك لا تملكين المبلغ •• سأكتفى بسبعة آلاف •• الستة التى معك ومخالصة بالألف مؤخر صداقك •• نعم اننى أرى انه لا داعى للانتظار •• مادام مصيرنا للافتراق فلماذا لا نعجل ونجعله اليوم ؟ ! وقبل أن تردى سأقول لك ماذا سيحدث اذا رفضت •• سأسافر وحدى لعملى ولن تستطيعى اللحاق بى •• ليس فقط لوجود جوازك معى •• ولكن لانك مادمت فى عصمتى ، فلابد من موافقتى على سفرك كما تعلمين •• أما اذا وافقت فسأستدعى المأذون ـ الذى تركته ينتظر فى السيارة ـ ليوقع الطلاق ويسلمك القسيمة •• كما اسلمك أنا جواز السفر •• فور تسلمى المبلغ ، بعدها تستطيعين السفر كما تشائين • هيه •• ما رأيك ؟•• هل تريدين فرصة للتفكير ؟ •

وكان ردى الحاسم •• وان لم أوجهه اليه •• ناديت الشغالة وطلبت منها النزول لتصحب الرجل الموجود بالسيارة أمام المنزل ، وفى دقائق انتهى كل شىء ••

فور خروج المـأذون ، قال « عزمى » :

ــ لى بعض متعلقات كتبتها فى هــذه الورقة •• أرجوك احضــارها ••

دهشت •• فمتى كتب هذه الورقة ؟ ، قبل أن أهم بالقيام دق الجرس ودخل خالى •• كان واضحا طبعا أن « عزمى » لم يلتق به قبل حضــوره الينا •• قال خالى متهلل الوجه :

ــ أنت هنا يا أستاذ « عزمى » •• طبعا « سناء » قالت لك •• مع الأســف كنت أود أن أكون أنــا أول من يبلغــك الخبر السار •• موافقة « سناء » ! ••

شهق « عزمى » :

ــ موافقة « سناء » ؟ علام ؟

تلفت خالى محتارا : على نقل ملكية الشقة اليك طبعا !

صرخ زوجى •• الســابق : ولمــــاذا لم تــذكرى ذلك يا سناء ؟ وأنت يا أستاذ توفيق •• لمـاذا لم تحضر الى مبكرا ؟

كان يتكلم وهو يقلب نظراته فينا ، فنظر الى آمى بغيظ وهو يكمل :

ــ ألم أقل لك انه فى حالة موافقة سناء يحضر الى الأستاذ

توفيق قبل أن تدق الساعة الثانية عشرة حيث لدى العديد من المصـــالح ؟ !

ردت أمي بسؤال وجهته الى خالى : لقد خرجت من هنا فى العاشرة والربع •• والمشوار لا يستغرق أكثر من ساعة •• على أسوأ الفروض ••

ـ أجل ولكن السيارة اللعينة تعطلت منى فى الطريق •• واضطررت لاحضار ميكانيكى لاصـلاح العطب •• وهـذا استغرق وقتا فوصلت منزلكم فى الثانية عشرة والربع ، ليخبرنى والدك بأنك خرجت من دقائق فقط •• ولكن •• ماذا حدث ؟ •

رد عزمى : لم يحدث شىء •• بوسعنا أن نعود الى تنفيذ ما وافقت عليه يا سناء •• وأنـــا من جهتى أسحب كل ما قلتـــه لك •• ولتعتبرينه كأن لم يكن !

رددت عليه بصوت أدهشنى أنـــا نفسى هدوءه الغريب : هناك شيئان لا نستطيع اعتبارهما كأن لم يكونا •• الكلمـــات وطلقات الرصـــاص ، أليس هذا غريبا ؟ ! قبل ان تطلق كلماتك تلك ـ انقتل بها كل ما كان بيننا ـ كنت على استعداد أن أتنازل عن آلاف من الجنيهات فى سبيل الابقـــاء على الرابطـــة التى بيننا •• بعدها •• أصبحت على اســـتعداد للتنازل على آلاف أكثر فى سبيل فصم هذه الرابطة !!

قال عزمى بتوسل : اسمعينى فقط يا سـناء .. بضـع كلمات أوضح لك سبب كلامى .

قاطعته : ولا كلمة واحدة .. لم يعد هناك ما يقـال .. بعد كل الذى قلتـه وكشفت فيه عن حقيقتـك .. لقد دفعت ما دفعت ليس من أجل أن أسافر الى حيث أقبض الآلاف كمـا تظن .. فاننى حتى الآن لم أقرر بعد ما اذا كنت سأعود الى عملى هناك أو أبقى هنا فى بلدى وأبحث عن عمل به .. لكنى ضحيت بكل ما أملك فى سبيل أن أحصـل على حريتى منك .. وأصحح خطـأ فادحـا وقعت فيه حين قبلت أن أتزوج بهـذه الطريقـة !

قــوائم الانتــظار

راحت الكوارث تتوالى •• حتى لم يعد أحد المسئولين بقادر على التصرف •• أصبحوا جميعا يحسون كما لو كانوا وسط طوفان مضى يغمرهم من هنا وهناك •• ولا أمل فى شاطىء يقترب •• أو مركب منتظر ، بدأ الكل يهمسون لى •• « ليتنا أخذنا برأيك » •

رأيى ؟ ، هه •• وهل تركونى حتى أقوله ؟ ، ما ان عرض كبيرنا فكرته حتى تسابق كافة المجتمعين على الموافقة ، وعندما اعترضت •• لم يمكنونى حتى من شرح أسباب رفضى •• حيث راح الكل يتحدث فى نفس واحد •• ثناء وتقريظا واستحسانا ! ، لم أفهم بالضبط ماذا يقولون •• كنت أحس كما لو أن أصواتهم تنحشر مقتولة فى فتحتى أذنى •• طبعا اضطررت للسكوت •

رغم ذلك طلب منى الكبير أن أقوم أنـا بتمثيل قومنا فى المفاوضات التى اقترحها •• حيث أنـا الموكل دائمـا بذلك ،

وبادرت من فوری الی حجرة مکتبی الخاصة لاعداد أوراقی •• دخلت علی ابنتی تداعبنی بصوتها الملائکی الرقیق•• لکنی لأول مرة لا أبادلها مداعباتها •• بالی مشغول تماما •• فورائی مهمة صعبة •• جدا •• أتوقع أن تکون مفاوضات الغد شاقة •• مضنیة متعسرة •• لذا یجب أن أهتم باعداد جمیع وثائقی ومستنداتی •• مؤیدة بالأرقام الدقیقة والمعلومات المؤکدة •• أیضا ینبغی أن أراجع کافة الحجج والبراهین التی أستطیع بها اقناع الطرف الآخر •• کی یستجیب للفکرة التی أحملها •• حتی ولو لم آکن أنا نفسی مقتنعا بها •• لکنه الواجب •• والنزول علی رأی الأغلبیة ••

بعد ساعات من العمل المرهق أحسست بالاطمئنان لقوة موقفی •• فأغلقت ملفاتی وقمت لتناول طعام العشاء •• رغم استجابتی تلك المرة لمداعبات طفلتی الا أننی لم أستطع التغلب علی شعور القلق الذی بدأ یراودنی منذ شهور •• کلما طالعت وجهها •• اذا کانت الحال قد وصلت بنا الی هذه الدرجة من المعاناة •• فکیف تکون حیاة طفلتی وجیلها بعد عشر أو عشرین سنة ؟ •• سیقاننا تکاد تغوص فی تلك الرمال المتحرکة التی أسموها قوائم الانتظار ، بعد الشقق حل الدور علی بعض المنتجات الصناعیة •• السیارات الثلاجات الخ الخ ، عدا هذه القوائم المکتوبة توجد قوائم انتظار بشریة •• الطوابیر ••

وفى كل يوم تضاف خدمة جديدة أو سلعة أخرى الى قائمة السلع أو الخدمات التى نحتاج للانضمام الى اللعبة •• لعبة الوقوف فى قوائم الانتظار ! ، ماذا يعنى ذلك ؟ •• هل يعنى أن أعداد أى شىء أقل من أعداد الناس •• أو أن أعداد الناس تفوق كثيرا أعداد أى شىء ؟ ، حتى كادت هذه القوائم تمتد لكل شىء فى حياتنا •• كبر أم صغر ••

بعد الفراخ بدأت طوابير السجائر •• ثم بعض المبيدات الحشرية •• والعدس والجبنة والسافو والبيض •• وحتى البطيخ •• والعنب •• الى رغيف العيش ! ، أما فى الخدمات فقد تفشى فيها الوباء — وباء قوائم الانتظار بصورة أفدح •• هل يصدق أحد أن تدرج أسماء المرضى المحتاجين الى بعض الجراحات فى قوائم الانتظار ؟ ! •• أيضا أسماء الأطفال الراغبين فى الالتحاق ببعض المدارس •• طلب تركيب تليفون •• نشر عمل أدبى الخ الخ •• على أن كل ذلك كان بالامكان تحمله •• لكن الأمر الأخير هو ما فاق كل احتمال •• عندما تكدس باطن الأرض بالجثث •• حتى لم يعد هناك مكان لأية جثة جديدة •• عندئذ اضطر القوم لوضع أسماء المتوفين فى قائمة للانتظار •• انتظار أن تتحلل احدى الجثث •• لتدفن جثة أخرى مكانها ، وطبعا كانت الجثث توضع فى ثلاجات المستشفيات •• بعد أن تأخذ كل منها رقما خاصا ••

لكن هذا الوضع لم يكن ليحل المعضلة الا لمدة شـهور تعد على أصابع اليد الواحدة •• بدورها امتلأت الثلاجات حتى آخرها ، فكان ذلك الاجتماع العاجل الذى دعا اليه كبيرنا •• حيث عرض فكرته •• التفاوض مع مـلاك الموت •• اعـداد قائمة انتظار خاصـة به •• يرتب فيها أسماء من حل أجلهم •• حتى يتم دفن الجثث المكدسة بالثلاجات ! ••

على عكس ما توقعت •• وافـق السـيد عزرائيـل على مطلبنا •• حتى من قبل أن أتلو عليه حججى أو احصائياتى •• لتقفز مشـاعر خيبـة الأمل على ملامحى ! ، تمنيت لو جاءت موافقته بنـاء على قوة منطقى الذى بذلت فى مراجعته عنـاء وجهدا ، اكتفى مفاوضى بأن يبتسم ابتسامة خفية وهو يقول :

ـ كما تعلم فاننى لا أتحدث كثيرا •• وأيضا لا أحب الاستماع كثيرا •• ومادمتم تقولون ان مطلبكم هـذا هـام وحيوى ولابد منه فلا بأس •• فقط وقع لى بأنكم مسئولون عما قد يترتب عليه من أمور ••

بصرف النظر عن النواحى الانسانية كطول عذاب الأشخاص المتحضرين • لأننى كوزير مسـئول أهتم بدرجة أكبر بالنواحى العلميـة ـ فقـد بـدأت الكوارث تتوالى علينـا نتيجـة لاختـلال النـاموس الأعظـم •• نـاموس التوازن ، زادت أزمـات السـكن والمواصـلات والغـذاء والمـدارس والمجارى والمستشفيات والأمن و •• كل شىء •• كل شىء ••

حيث تضخمت قوائم الانتظار الخاصة بكل هذا تضخما خطيرا ، واضطر كبيرنا أن يأتى الى مكتبى أول أمس ليقول لى :

ـ كنت معارضا لفكرتى بأن يتوقف عزرائيل لبعض الوقت •• يبدو أنه كان معك الحق •• فماذا كان البديل فى رأيك ؟ ••

ـ لا أستطيع تقديم بديل الآن •• فكما ترى تأتى القرارات المتسرعة بنتائج عكسية •• لذلك فاننى سأجمع الخبراء فى هذا الموضوع لأتدارس أنا وهم الأمر ••

وقد كان ، تبارى كل خبير فى تقديم أحد الاقتراحات مع دراسة كاملة عن توقعاته عنه •• وبعد مناقشة المجتمعين لكافة المقترحات •• استقر الرأى على استبعاد فكرة تحنيط الجثث •• فاذا كنا لا نجد لها مكانا يكفيها تحت الأرض فكيف سنستطيع تدبير هذا المكان فوقها ؟ ، وأيضا رفضنا فكرة ارسالها فى كبسولات لتدفن على القمر •• وذلك للتكاليف الباهظة التى تتطلبها تلك العملية ، كذلك فكرة القائها فى النهر •• خشية تلوث مياهه التى نعتمد عليها جميعا للشرب ، وبذلك انحصر التفكير فى اقتراحين فقط •• اما حرق الجثث •• كما يحدث فى بعض الجهات •• أو بناء المقابر ذات الأدوار المتعددة •• كما فى جراجات السيارات الحديثة ••

هذا الصباح كان الموعد المحدد لاجتماع مجلسنا الموقر .. ذهبت الى هنـاك وأنـا أحمل تحت ابطى مشروعى الفكرتين شاملة كل الدراسـات والمناقشـات التى دارت حولهما ، رغم تبكيرى بالحضور وجدت كبيرنا موجودا من قبلى .. اتجهت اليه وبدأت بعرض الأمر دون أن أضيع وقتا .. لكننى لم أمض فى ذلك الشرح طويلا .. أسكتنى باشـارة من يده :

ـ اغلق ملفاتك .. فلن نبحث هـذا الموضوع اليوم .. متفق معك طبعا فى خطوته .. لكننى قررت أن الأمور ينبغى ألا تسير هكذا بالارتجال فى مجلسـنا العظيم وانما يجب أن نضع المشاكل والأمور التى تحتـاج للبحث فى قائمة انتظار .. ثم نسير على هديها .. وكما ترى .. فى قائمتنا تلك .. هنـاك مشكلة تسبق موضوعك .. هى تقرير من الذى يوضع اسمه أولا فى الحفل الرسمى .. الوزير الأول أم قاضى القضاة ؟ ! ، ربما كانت هذه المشكلة أقل أهمية لكننى أود أن تكون قائمة الانتظار هذه مقدسة لدينا ! ..

يا الهى .. قائمة للانتظار مرة أخرى ؟ .. أيها الناس .. اعلموا ــ والحاضر يبلغ الغائب ــ ها هى قائمـة جديدة تضاف لقائمة قوائم الانتظار .. فى عصرنا العجيب هذا .

الزهــور الثلجيــة

دخل شقيقى فسألته :

ــ ألم يحضر سامح بعد ؟ ••

ضحك فى دهشة : : ــ هذه عاشر مرة تسألين فيها هــذا السؤال يا « منى » •• عجبا •• هل كنت غبيا لهذه الدرجة فى الشهور الأخيرة •• حيث كان يخيل الى أنك لا ترحبين ــ بل ربما تتبرمين ــ بزياراته ؟ ! ••

ضحكت بدورى •• لكننى لم أرد على ملاحظته ، ومــاذا أقول له ؟ •• فمهما قلت لن يفهمنى •• لا هو ولا غيره ، لقد تغيرت مشــاعرى من النقيض الى النقيض خــلال ليلة ! ، فى بدايتها كتبت خطابا لسامح أعلنه بفسخ خطبتنا •• وفى صباح نفس الليلة كنت أكاد أجن شــوقا لرؤيته •• بل وأستغيث به كأنه الانسان الوحيد فى هــذا العالم الذى أبادله الاهتمام ! ، لكن الليلة أيضا كانت عجيبة ، أطول ليلة فى التاريخ •• ستظل محفورة فى ذاكرتى ما بقى لى من عمر ••

لم يكن الليل قد انتهى بعد حين فتحت عينى لأجد الظـلام يلفنى ويلف الدنيا من حولى •• خمنت أن الفجر لم يحن بعد •• ولكن •• أين ضـوء اللمبة السهارى ؟ •• آه •• ربما انقطعت الكهرباء •• أو احترقت اللمبة ، لكن يا الهى •• أحسست كأن شيئا يخنقنى فلا أستطيع التنفس الا بصعوبة •• لا ريب أثقلت فى العشاء فرسخ الطعام على معدتى •• مددت ذراعى أبحث عن زر الأباجورة •• فاذا حولى حوائط من كافة الجهات ، ما هـذا ؟ •• هل هو حلم •• أو على الأصح كابوس ثقيل ؟ •• حاولت التركيز فى أحداث اليوم تذكرت أننى كنت فى طريقى الى دورة المياه عندما رأيت شرخا يحدث فجـأة فى حائط الطرقة المؤدية الى الحمام ويتساقط منه تراب كثير •• خيل الى أن العمارة ستسقط ، فعدت أدراجى كى أوقظ والدى •• لكنى ما كدت أستدير حتى سمعت فرقعة والسقف يتساقط فوقى •• وكان هذا آخر ما وعيت ••

اذن فلا شك أننى قد مت ودفنونى •• وأنـا الآن فى القبر ، سمعت كثيرا وأنـا على قيد الحياة أن هنـاك طاقـة تفتح فى القبر •• ليرى منهـا الصالحون الجنـة والكافرون النار •• ترى متى تفتح طاقتى تلك ؟ •• وهل سأطل منها على الجنة أم على النار ؟ ، أنـا لم أفعل طوال حياتى القصـيرة سيئات •• سـوى بعض الكذبات البيضاء على أمى أو بعض

زميلاتى .. عدا ذلك كنت أساعد الفقراء دائما .. حتى أن أغلب مصروفى كنت اشترى به حلوى لأبناء دادتنا التى توفى عنهـا زوجها ، أيضا متى يأتى الملكان اللذان سيحاسبانتى على ما قدمت يداى كى أقول لهما ذلك ؟ .

أحسست بشىء من التراب على وجهى فأخـذت أزيحـه بيدى .. وأدهشنى ذلك .. كيف يكون وجهى عاريا ويداى طليقتين ؟ . كيف لم أغط تماما بالاكفان ؟ . آه .. طبعا أنـا الآن روح .. والروح لا ترتدى الاكفان ، ألمتنى كتفى فأخذت أدلكها .. وعادت لى دهشتى .. فرحت أتحسس وجهى وذراعى وصـدرى .. كيف أكون قد مت اذن ؟ .. بعد الموت تجىء الروح وحدها دون الجسد .. لكننى أحس بجسدى مكتملا .. تجلت لى الحقيقة الرهيبة بغتة ، فرحت أصرخ بأعلى صوتى .. اننى لم أمت .. ومازلت تحت الانقاض !! .

حاولت أن أقوم لكننى لم أستطع .. الانقاض تحيط بى من كل جانب بأكملهما .. ولا أدرى لـماذا لم تغط وجهى وبقية جسمى .. ربما هناك عرقا من الخشب صنع مظلة فوقى ، ترى هل يستطيع رجال الانقـاذ أن يصلوا الى أم أظل هكذا حتى أموت جوعا وعطشا .. ورعبا ؟ .. وما أبشعها ميتة .. ليت الأحجار سقطت على مباشرة وأزهقت روحى للحـال .. فوقوع البلاء أرحم كثيرا من انتظاره ، ويا له من انتظار .. لشىء ربما

لا يأتى أبدا .. اللحظة فيه تساوى دهرا بأكمله .. فكيف بى اذا استمر الحـال هكذا ساعات وساعات ؟ الا ليتهم يستطيعون التوصل الى سريعا ، هتفت فجأة : « آه يا سامح ؟ . ليتك كنت بجوارى الآن يا سامح ؟ . ليتك خارج العمارة .. اذن لابلغت المسئولين ولفعلت معهم المستحيل كى تصـل الى .. أنـا واثقة من ذلك » . لكنه للأسف قد سافر الى مرسى مطروح .. ولن يعود قبل خمسة أيام . ولكن ألا يوجد سواه يهتم بى كثيرا ؟ وأسرتى ؟ أبى وأمى وأخى وأختى ؟ كيف كان هو أول شخص خطر فى بالى وأنـا فى شـدة الكرب .. حتى قبـل أفـراد أسرتى ؟ !

وضربت جبهتى فى فزع .. أسرتى.. كيف تصـورت أن مكانى وحده الذى سقط بى .. لاشك طبعا أن العمـارة بأكملها قد انهارت .. أليس هـذا عجيبا .. كيف تنهار هـذه العمارة ولم يمض على بنائها أكثر من عام ؟ مم بناها صاحبها المعدوم الضمير هـذا ؟ ظن والدى أن الدنيا قد ابتسمت له حين وجد هذه الشقة عندما نقل من الزقازيق الى القاهرة .. ولم يدر أنها كانت بسمة ساخرة .. تلك التى غطت شفاه الزمن .. لقد دفع فيها بضـع عشرات من الآلاف .. لتكون قبرا لنا .. وربما كان ذلك أغلى قبر سمع عنه أحد ، ترى ماذا حدث لأسرتى ؟ لا أظن القدر يمكن أن يكرر معجزاته فيصنع فوق كل منهم تعريشـة

تحميه •• بل لابد أنهم الآن قد لاقوا حتفهم تحت الانقاض ••
آه يا أمي الحبيبة ويا أبي ويا اخوتي •• كيف يمكن أن أعيش
بدونهم ؟ • راحت الدمـوع تهطل من عيني • وكلما حاولت
مسحها بكمي المغطى بالركام كلما امتلأت بالتراب •• لكن
دموعي لا تتوقف ، وتذكرت ما كنت أقرأه في الجرائد من قبل
في كوارث سقوط المنازل •• عندما يذكرون أن احـدى أو أحد
أولاد الأسرة فقط قد انقذ ، بينما لقى الباقون مصرعهم •• كان
أخي يذكر أسـماء القتلى ويمصمص شـفتيه « مسـاكين » ،
بينما أقرأ أنا أسماء الناجين وأقول بحسرة « مساكين » ! ،
نعم •• الموتى قد استراحوا •• أما العذاب حقا ، فلمن سيعانون
مرارة فراق أحبائهم ، أكثر من مرة قلت في نفسي : « ليت الله
يرحم هـذا الصبي أو تلك السـيدة فيلحقها بأسرتها » ، اذن
الأفضـل أن أموت أنـا أيضـا حتى لا أتعـذب بحسرة فراق
أحبائي •• وهل أنسى عندما ماتت قطتي السيامية والحزن الذي
ملأ قلبي أيامها •• فكيف اذن بأسرتي كلها ؟ ، قررت ساعتها أن
أكف عن الصراخ حتى لا يعرف رجال الانقاذ مكاني فأموت في
هـدوء ! ••

لكنني عدت أفكر : وماذا كان في وسـعي طوال الوقت
الذي مر على هكذا وقد قيد جسـدي وتعطلت أغلب حواسي
سوى أن أفكر ؟ أليس محتملا أن يكون العكس هو ما حدث؟•

أن تكون غرفة أبوى فى مكان بعيد عن الانهيــار فينقذا ؟ كيف اذن يكون مقدار حزنهما على ؟ ، بدا لى أنه فى هــذه الحــالة من الأفضل أن يتم انقاذى رحمة بأبوى •• وكذلك بسامح •• وأنــا واثقــة تماماً ــ خاصــة الآن ــ من مقدار حبــه لى ، يا الهى •• يخيل الى أنه قد يجن اذا ما فقدنى فجأة هكذا ، أيضا فاننى رحت أتساءل •• ألا يعد سكوتى عن اعلان مكانى بمثابــة قتل للنفس التى حرم الله قتلهــا ؟ •• تمتمت أذكر الله وأدعوه فى شدتى ، فأحسست بشىء من الاطمئنان يغشى قلبى •• نعم ليس من حقى أن أقرر موتى أو انقاذى فحياتى هبة من ربى وعلى أن أحافظ على هبتــه وأترك البــاقى على الله فهو كريم رحيم ، ويمر وقت طويل •• وأشعر بالعطش •• وبآلام كتفى تزداد •• وأيضا يزداد ثقل الركام على ساقى لدرجة أحسست معها كأنهما لم تعودا منى •• ثم بدأ جسمى يضعف ويتخاذل من شــدة الارهاق والتعب •• حتى شــعرت أننى فى طريقى للنوم •• أو للاغمــاء •• أو ربما للموت •• لم أدر بالضبط •• فاستسلمت لمصيرى ••

أفقت مرة ثانية بعد وقت لم أعرف مداه وقد خيل الى أننى أسمع صــوت معاول عن قرب ، ترى هل يعملون قريبا منى حقا أم هو خداع للنفس مثل الذى يسير فى الصحراء ويخيل اليه أنه يرى نبع مــاء • أرهفت الســمع فكاد قلبى يكف عن

الخفقان لشدة الفرحة .. فعلا كانت هنــاك أصوات معــاول قريبة ، ورغم ارهاقى وضعفى الشديد الا أننى عاودت الصراخ بأعلى صوتى حتى يتنبهوا الى مكانى .

ازداد اقتراب الدق .. بل بدأت أذناى تلتقطــان بعض أصوات لأشخاص يتحدثون .. خيل الى أن أحدها صــوت أبى .. ألا ليت ذلك يكون حقــا .. ورحت أدعــو الله الذى استجاب لدعائى بوصــول رجال الانقاذ الى .. أن يتم نعمته على بانقاذ أفراد أسرتى جميعا .. حتى يجتمع شملنا من جديد ، وارتفع صــوت آخر فركضت نبضــات قلبى .. شبه الى أنه صوت سامح .. ولم لا ؟ .. لم يحن موعد عودته بعد ولكن .. ألا يحتمل أن يكون قد علم ـ بالتليفون مثلا ـ بما حــدث لى فقطع رحلته وجاء على أول طائرة ؟ ، حقا يا الهى .. كم تصبح مفاجأة سارة لى .. لو كان وجهه أول وجه أراه عندما أخرج من محبسى هــذا ، وضحكت من نفسى .. أليس غريبــا أن أتلهف على رؤيته لهذه الدرجة بينما كان آخر شىء فعلته قبل أن أذهب لدورة المياه ساعة سقوط المنزل هو كتابة ذلك الخطــاب اليه .. أبلغه فيه برغبتى فى فسخ الخطبة .. ورجائى ألا يحاول مراجعتى حيث هــذا رأيى النهائى .. أيضا ألا يعقد الأمور حتى ينتهى الموضــوع فى هــدوء وبدون مشــاكل ! ، وأحسست بالقلق .. ترى أين هــذا الخطاب الآن ؟ .. عموما لا أعتقد

أن أحدا يمكن أن يعثر عليه وسط هـذا الركام الهـائل ..
وأضاء ذاكرتى شعاع خاطف .. لقد وضعته فى جيب روبى
المنزلى حتى آخذه فى الصـباح لالقيه فى صـندوق البريد ،
ووضعت يدى فى جيبى .. لدهشتى وجدته فعـلا .. فرحت
أمزقه مرات ومرات ! ..

بدأ صوت المعاول يزداد اقترابا فيرتفع أكثر وأكثر ..
ودقات قلبى التى ارتفعت بدورها حتى أصبحت كدقات الطبول
تكاد تغطى عليها ، فجـأة أحسست بشىء من الرعب يخـالط
فرحتى .. ماذا لو أصابت احدى المعاول عينى ففقأتهما ؟ لففت
ذراعى حول عينى أحميهما .. لكنى عدت وتذكرت رأسى ..
انها هى الأخرى معرضـة للاصابة .. خاصـة ودق المعـاول
يأتى من فوق .. لذلك سحبت احدى ذراعى ووضعتها فوق
رأسى .. وتكفى عيناى ذراع واحدة ، أخيرا .. أخيرا .. جدا
سمعت صوتا يهتف :

ـ ها هى ذى ..

رفعت ذراعى من فوق عينى فرأيت فتحة صغيرة بجوارى
يدخل منها ضـوء الشمس .. بشدة كادت تصيبنى بالعمى ..
لولا أن عدت أغطى عينى ، قال الشخص الذى كان يجـاهد
ليجذبنى :

ـ هناك ركام ثقيل يغطى ساقيهـا •• أرجو آلا يكون عامودا من المسلح قد سقط عليهما ••

رغم حالتى فهمت ما يمكن أن يعنيه هذا فصرخت :

ـ لا •• لا أريـد أن تبتر سـاقى •• اذا لم نستطيعوا اخراجى سالمـة فلتتركونى أموت حيث أنـا •

همهم أكثر من شـخص تجمعوا ليساعـدوا الأول فى اخراجى :

ـ سليمة باذن الله ••

رغم نجاحهم فى تخليص ساقى الا أن الآلام التى شـعرت بها فيهما كانت فوق تحمل البشر •• فتعالت صرخاتى •• التى قطعها أخيرا دخولى فى اغماء جديد •

فى المستشفى كانت شقيقتى « عبير » ترقد ـ مصـابة هى الأخرى ـ فى السرير المجـاور ، وعلمت أن اصابات والدى ووالدتى كانت سطحيـة •• أما أخى فلم يكن بالعمـارة وقت الانهيار •• اذ عاد من حيث كان يستذكر دروسـه عند أحد أصدقائه بعد سقوط العمارة بدقائق فكتبت له النجـاة ، طبعا حمدت الله كثيرا •• رغم الكسر الذى أصاب كلتا ساقى •• حتى اضطر الاطباء لوضعهما فى الجبس • بعد الظهر دخل أحد العمال

يحمل باقة أنيقة من الزهور •• وضعها على المائدة التى تتوسط سريرنا •• قالت « عبير » وهى تقرأ البطاقة :

ـ انه مدحت ••

كنت قد توقعت ذلك •• حيث الاتيكيت والأصول تقول أن زيارة المريض عقب الجراحة غير مستحبة •• لذلك يفضل ارسال الزهور •• ومن الذى يفهم الاتيكيت والأصول مثل « مدحت » ؟ •• الأسرة كلها أجمعت على ذلك •• بعد أن بهرنا جميعا بتصرفاته الأنيقة المرسومة بمنتهى الدقة والعناية ، لا يدخل مكان قبل أن يستأذن •• لا يجلس قبل أن يجلس من هو أكبر منه •• لا يرافق أختى ـ خطيبته ـ الى مكان الا اذا طلبت هى منه ذلك الخ الخ ، ولقد كنت أنا أكثر الكل انبهارا به •• وكم رحت أعقد المقارنات بينه وبين « سامح » خطيبى •• الذى كنت أعيب عليه ملاحقته الدائمة لى سواء بكثرة زياراته لنا بالمنزل •• أو فى النادى •• وحتى فى الكلية رغم سبق تخرجه بأعوام •• حتى لقد بت أحس كأن حبه الذى يطوقنى به باستمرار يكاد يخنقنى !!

مدحت كان مختلفا •• تعود أن يذهب الى النادى فى الأوقات التى يرغبها وليس فى الأوقات التى يتأكد فيها من وجود « عبير » ، أيضا كان مقلا فى زياراته لمنزلنا •• لذلك كانت لزياراته أهمية وعناية يتردد صداها فى المنزل كله ، فاذا سمع

بتوعك « عبير » فى غرفتها يطلب من أمى ابلاغها سلامه •• ثم عندما تتماثل للشفاء يستأذن فى الدخول اليها •• وذلك بعد موعد مسبق ، أما « سامح » فما يكاد يعلم بأقل لفحة برد تصيبنى حتى تبدو عليه اللهفة والقلق •• ويصر على رؤيتى فورا •• ويظل يسير فى الصالون جيئة وذهابا حتى تسمح له أمى بالدخول ، ذلك دليل على الحب •• دون شك •• لكن •• هذه التصرفات كانت تثير أعصابى • لم يكن ذلك « بطرا » منى كما قالت لى صديقتى « ايمان » •• وانسا •• كم كان أجدادنا صائبين فى أمثالهم القديمة ومنها ان « الشيء اذا زاد عن حده انقلب الى ضده » ، ما من مرة افصحت فيها عن اعتزامى القيام بشيء — أى شيء — الذهاب الى سينما أو مسرح أو معرض أو محاضرة أو ندوة أو أو •• الا ويعلن فورا انه سيفعل نفس الشيء !

هذا التوافق ربما تحلم به الكثيرات •• لكننى كنت أفضل أن يكون لكل منا مجال مختلف أحيانا •• ثم عندما نلتقى فى بعض الأفكار يكون لهذا اللقاء بهجة السعادة ، لا أنسى فى الصيف الماضى •• عندما ألححت على أسرتى حتى وافقوا على ان نذهب الى جمصة بدلا من الاسكندرية •• التى كنت أعلم أن لأسرة سامح شقة بها •• وذلك حتى أتحرر من صحبته ولو لأسبوعين •• لا •• لم أكن أعتبره شخصا سيئا •• اطلاقا ، على العكس كان الكل يراه شابا لطيفا له شخصيته المتميزة ••

وربما لو لم يكن لحوحا بهذه الدرجة لأحببته جدا ولتمسكت به الى أقصى حد ، لم يكد « سـامح » يسـمع بالمصيف الذى اخترناه حتى هلل فى سعادة :

ــ تعرفين .. انها فكرة رائعة .. لقد سمعت من أصدقاء لى عن روعة هـذا المصيف الحـديث .. الحقيقة لقد مللت قضاء الصيف كل عام فى الاسكندرية .. وما أجمل أن نقوم بشىء من التغيير !

كم هممت أكثر من مرة أن أطلب منه التقليل من ملاحقتى .. لكن شجاعتى كادت دائما تخونى .. عندما يبتسم ابتسامته الاسرة تلك وهو يقول باهتمام كبير :

ــ أجل يا « منى » .. ماذا كنت تودين أن تقولى لى ؟ ..

ثم كانت القشة التى قصمت ظهر البعير .. أعلن النادى عن رحلة لمدة أسبوع الى مرسى مطروح ، وطلبت من خـالى أن يحجز لى معه ، هو وزوجتـه وأولاده .. وتعمدت الا أخبر « سامح » بالأمر الا بعد أن علمت باكتمال العدد ، كما توقعت أسرع ليحجز هو أيضا فلم يجد أماكن .. ورأيته يكاد يجن .. ثم اذا بى أفاجأ به يحضر الى قبل السـفر بيوم واحد ليبشرنى بأنه قد حصل على تذكرة .. وذهلت :

ــ لكن كيف ؟ !

ــ ها ها •• لقد فعلت المستحيل ! •

وكان رد فعلى أن أرجعت أنــا تذكرتى مدعية لخالى اننى أصبت ببرد مفاجىء ، بعد سفره بيوم واحد كتبت له خطـابى ذاك على عنوان مخيم النادى بمرسى مطروح ، وقد وجدت فى بعده فرصتى الوحيــدة لطلب الانفصــال •• حيث لم أكن أستطيع قط أن أواجهــه بذلك ، عندما انتهيت من الكتابة زفرت بارتياح •• يا الهى •• كم هى بديعة •• الحرية !!

طبعا الحادث المروع الذى وقع لى •• والليلة الرهيبــة التى قضيتهــا فى الظــلام •• تحت الانقــاض •• وحيدة •• مذعورة •• انتظر الموت فى آية لحظة •• قلب جميع أحاسيسى وقيمى واهتماماتى ومتطلباتى •• كانت محنة •• كل ما كنت احتاج اليه فيها شخصا مثل « سامح » •• مثل سامح تماما •• فبين والدين لا يبخلان على بشىء •• وأصــدقاء وصــديقات يرحبون بوجودى معهم لمرحى وانطلاقى •• وزمــلاء يتمنون رضائى حتى لا أبخل بتوصيل أحد منهم بسيارتى •• وســط كل هؤلاء •• لم أشعر باحتياجى لأحد •• لكننى أدركت أن رحلة الحياة الطويلة بعد ذلك ــ حتى خارج الانقاض ــ لن تكون كلها ضحكات وشــموع وزهور ، لذلك فان أهم المواصفات التى يعنينى توافرها فى شريك هــذه الرحلة •• ليس أن يجيد الاتيكيت فتــكون حركاته آنيقة محســوبة بالسنتى والملى ••

وتصرفاته مدروسة حسب تقاليد محددة .. وكلماته منمقة منتقاة وانما شخص أحس أن قلبه يهتم بى .. وكفى ..

قطع تفكيرى دخول الممرضة فى هـذه اللحظة تحمل باقة زهور جديدة وضعتها مكان زهور أول أمس .. خمنت أنهـا من « مدحت » أيضا .. لكننى لم أستطع أن أمد اليها يدى لاتناول البطاقة منها حتى لا تقشعر أصابعى .. حيث خيل الى أن زهورها زهور ثلجية .. باردة .. مثله !

فجأة فتح الباب .. ودخـل ـ أو على الأصح اندفع ـ سامح تسبقه لهفته المعهودة .. للحال امتلأت الغرفة كلها .. وليس قلبى فقط .. بالسعادة .. هتف :

ـ منى ..

بعدها لم يقل كلمـة واحدة .. ولا أنـا أيضـا .. كل ما فعلته .. أننى تركت يدى فى يديه وعينى فى عينيه .

من أجل وجبة عشاء

صرخت : ـ لا .. لا .. غير صحيح . .كل ما قاله هذا الرجل .. غير صحيح .. !

ضجت القاعة كلها بالهمسات والهمهمات حتى اضطر القاضي أن يدق المنصة ليعود السكون ، خاطبها :

ـ الأستاذ .. الذى تقولين عنه « هـذا الرجـل » هو محاميك .

ـ أعرف ذلك .. أعرف أيضا أن المحكمـة هى التى وكلته عنى عندما لم يوجد من يوكل عنى محاميا .

ـ اذن فهو يتكلم فى صالحك .. عموما ما قاله الآن هو نفس ما قلته فى التحقيق .

ـ هو الذى ألف لى هـذه القصـة .. سرقت لاجرى عملية جراحية .. لابنى .. قال ان ذلك سيخفف من عقـابى ، وافقته أثناء التحقيق .. لكننى الآن غيرت رأيى .. قررت أن

أقول الحقيقة .. كلها ليعرف زوجي أنه السبب .. لتعرف شريكاتى .. زوجاته الباقيات فى أى طريق يسرن ، ليعرف الناس جميعا حقيقة هذا الرجل .. المحترم ، بسببه ألقيت فى السجن ، مع ذلك لم يحضر لزيارتى ولا مرة .. لم يجبر حتى بخاطرى فيسألنى عما اذا كنت أريد شيئا ، حتى الأولاد .. أولاده .. علمت منهم أمس فقط أنه لم يذهب اليهم اطلاقا منذ بدأ التحقيق معى ، ولماذا يذهب ولم يعد هناك موقد لانضاج طعام .. لحما كان أو أى شىء آخر ، هل يخشى أن يلحقه العار اذا ما جاءنى فيعرف الناس ان زوجته لصة ؟ اذن فاننى أعلن بأعلى صوتى — ليس فقط أننى زوجته — ولكن انى سرقت لأطعمه .. حيث لم يأكل يوما من كده وانما على حساب الحريم .. !

— تريدين يا منيرة أن تغيرى أقوالك ؟

— كلها ..

— اذن فكرى جيدا قبل أن تقولى أية كلمة ، فانها سوف تحسب عليك .

— فكرت .. كثيرا .. وماذا كان عندى لافعله سوى التفكير طوال أسابيع الحبس الاحتياطى .

— ماذا تريدين أن تقولى :

ـ هذا الرجل متزوج من ثلاث نساء غيرى .. أجل نحن أربع .. ولم لا ! .. لو كان ينفق علينا كما شرع الله لاكتفى بواحدة ، وأيضـا لو كان متزوجا من واحدة لاضطر أن ينفق عليها .. ما كانت لتقبل هى أن تنفق عليه ، لكنـه أدخلنـا فى منافسة .. فى سباق .. واضطرونا اذ نجرى بكل ما آوتينا من قوة .. رغم أن الجـائزة كانت تافهة « هو نفسه » لكن واحدة منا لم تكن لتستطيع أن تكف عن الجرى والا أخذتها الباقيات فى أرجلهن .. صـدق أو لا تصـدق يا سـيادة القاضى .. زوجى .. أقصد زوجنا كان يرسل صبيه كل يوم الى المنازل الأربعة . فمن كانت لديها عشاء بات ليلته عندها . !

ارتفعت شهقات البعض وضحكات البعض الآخر ، فعاد القاضى يدق المنصة دقات عديدة حتى ساد الهدوء ، وعادت الواقفة داخل القفص تكمل حديثها :

ـ كل منا كانت تفعل المستحيل لتحصـل على نقود كى تجهز عشاء دسما أكثر من مرة فى الأسبوع .

وارتفعت بعض التعليقات اللاذعة ، فاستدركت بحدة :

ـ لا .. ليس لمـا تفكرون فيه .. قلت من أول الأمر أن جائزة السباق وهى هو نفسه شىء تافه لكن المسألة دخلت فى دور عناد أو قل كرامة .. شىء من هـذا القبيل ، عدم تردد

الزوج على واحدة من نسائه يعنى الكثير .. يعنى انها انثى غير مرغوبة أو ليست انثى على الطلاق .. عبـارة عن كم مهمل .. نفاية لفظها زوجها ، فلفظها بالتالى المجتمع القاسى الذى يسير دائما فى ركاب القوى .. زوجة مهجورة وهـذا الهجر يصغر من شأنها ويخفض من رأسها بين الباقيات حتى لتصبح موضـع التندر ، والهزؤ والسخرية .. والشماتة ، هكذا كنت أو ظللت لمدة طويلة كان باستطاعة شريكاتى الباقيات دائما الحصـول على نقود .. الا أنـا ، لم يكن يعملن ، ولا واحدة منا كانت تستطيع أن تلتحق بأى عمل .. كل زوجـة منا مكبلة بما يقرب من نصف دستة أولاد . هـذا أيضا كنا مضطرات اليه .. مرحلة أخرى من مراحل السباق ، قبل أن يكتمل عددنا لأربع كان يتزوج كلما راقته فتاة ..فما الذى كان يمنع ان تروقه واحدة جديدة بعد أن أستوفى العدد .. ؟ عند ذلك كان حتما عليه أن يطلق احدانا والاقرب للعقل أن تكون الأقل أطفالا ، ولم تكن واحدة منـا براغبة فى تشريد أطفالها ومن ثم سارعنا نتسابق فى الانجاب .. كل منا تريد أن تكبله بأكبر عدد من « القيود » .

رغم عدم اعتماد أى منا على العمل ، كانت الثلاث الباقيات تستطعن الحصـول على نقود ، ولم يكن فى أمر واحدة منهن سرا.. فقد بحثت وسائلهن علنى أستطيع تقليد احداهن ، لكن ظروفى كانت مختلفة ، الأولى كانت أمها تاجرة دواجن ، فكانت

تذهب اليها كل بضعة أيام لتقتنص منها دجاجة ، حقا لم تكن تعطيها بسهولة لكنها لم تكن تعدم وسيلة لارغامها •• أحيانا بتهديدها بأن زوجهـا سيتركها فتضطر للاقامـة عندهـا هى وأولادها •• ولترى كم ستنفق عليها حينذاك ، بل اننى سمعت أن أمها لم تهتم يوما بهذا التهديد ، فما كان منها الا أن أمسكتها من شعرها ظلت تخبط رأسـها فى الحائط حتى سال منها الدم ثم ألقتها جانبا وأخذت بدل الدجاجة الواحدة دجاجتين ومضت •• الثانية أرسل الله اليها قرب غرفتها عمارة تشيد ، وكان ان جعلها المـالك حارسة على الحديد والأسمنت بأجر يومى قدره جنيهان دون أن تتعب فى أى عمل ودون أن تضـطر لترك أولادها فهم يتقافزون من حولها وأصغرهم فى حجرها تلقمه ثديها ، الثالثة الحقت اثنتين من بناتها بالعمل فى المنازل ، وكانت تحصـل من أجرهما على ما يقرب دخل الثانية من حراسـة مواد البناء ومن ثم كان فى استطاعة كل منهما أن تحضر نصف كيلو من اللحم أكثر من مرة فى الأسبوع ، وأنـا لا تملك أمى دكانا لبيع الدواجن ولا تقام بجوار سكنى عمارة ، وليس عندى بنـات يعملن •• لحظى كل خلفتى صـبيان •• الصـبيان لا يعطون أجـورهم لأمهاتهم ، واذا ألححت على أحد منهم شتمنى •• عدم تربيـة أليس كذلك ؟ •• وماذا ينتظر من أولاد نشأوا دون اشراف أب غير أن يضيعوا أجورهم فى السجائر والقمار وما هو انكى من هذين ، فاذا راجعتهم أمهاتهم أساءوا أدبهم عليها ؟

فشلت اذن فى ايجاد مورد لتدبير وجبـة عشـاء ولو مرة واحدة فى الأسبوع ، ومن ثم قطع زيارتـه لى تماما أصبحت المنبوذة المجهورة .. ذيل القائمة ، أولادى أيضا أصبحوا أيتاما وأبوهم على قيد الحياة ، صعب على أولادى .. وصعبت على نفسى ، وكان لابد أن أحـاول استعادته .. أو على الأقـل استعادة نصيبى فيه ، ولم يكن أمامى الا السرقة .. فسرقت ! وأصبحت أستطيع أن أحضر له اللحم أيضا ، فعاد للتردد على والبيات عندى ، انه اليوم يتبرأ منى ومن فعلتى الشائنة فلمـاذا لم يخطر له يوما أن يسألنى عن مصـدر هذه النقود رغم أن ما يعطيه لى لا يكفى الخبز الجـاف بجانب ايجـار الغرفة ؟ ، اننى لا أكتمكم سرا فى أن بداية تفكيرى اتجهت لشىء آخر كلكم تخمنونه .. لكننى على آخر لحظـة منعت نفسى أو منعتنى تربيتى فى بيت طيب حيث كان والدى رجـلا من رجـال الدين الصالحين المؤمنين ، لذلك فلم يكن حتى أقدامى على السرقـة بالأمر الهين على نفسى ، لكنى كنت مضطرة أشـد الاضطرار فلا أحد يستطيع تحمل المهانة والاذلال ، ولو تركته لسرقت أيضا لآكل حيث لا أحد لى يعولنى ، والحقيقـة أن حظى سيىء للغايـة ..

ــ طبعا ان يوقعك قدرك مع زوج يمارس مثل هـذه البلطجة .

— انها بلطجة فعلا •• لكن ألا ترى يا سيدى القاضى انها بلطجة مشروعة دينا وقانونا ؟ ، وليس لوقوعى فى الزواج منه فقط انعى حظى ، ولكن •• لوقوعى فى قبضـــة العـدالة ، فجميعنا نحن الأربع ارتكبنا الجرائم لكن لم تقع منا فى قبضتها ســواى •

عادت الضجة تملأ القاعة : فانتظرت السيدة حتى هـدأت الأصوات ثم عادت تستكمل اعترافاتها المثيرة :

— نعم •• أنتم رجال قـانون فما نظرتكم لامرأة تشج رأس أمها •• أليست هـذه جريمة ؟ لكنها لحسن حظها كانت ضد أمها ، وقلب الأم لايمكن أن يقبل مقاضاة فلذات الاكبـاد . الثانية •• حارسة العمارة •• أصيب ابنهـا فى العام المـاضى بشلل أطفال ، فى بداية المرض ذهبت به الى المستشفيات المجانية•• طبعا لشـدة الضغط عليهم هنـاك ، لم يكن الفحص دقيقـا ولا التشخيص صحيحا ، ولم يفد الدواء •• أو المزيج الذى يعطونه للكل ، فما هان عليها أن تذهب بابنها الى طبيب خاص•• رغم أنها تكتسب •• فضلت أن تنفق ما تكسبه على اطعـام زوجها ، مضطرة •• داخلة هى أيضا فى السباق ، الولد أصبح الآن مشلولا بائسا ، أليست هـذه جريمـة •• وان لم تكن مما يعاقب عليها القانون ؟ •• ليت أحدا يقول لها أن تهتم بابنتها وتذهب بها لطبيب يعالجها من الرمد الذى أصاب عينيها قبل

فوات الأوان .. ليت أحـدا ينصحها بان انفاقها على عـلاج ابنتها أفضـل من شرائها اللحم ليأكله زوجها ، ولتر ماذا فعل بى .. آه لو اننى علمت نذالته مبكرا اذن لجهزت له السـم بدلا من اللحم ، ومثلها ضرتى الثالثة جريمتها أيضا من النوع الذى لا يعاقب عليه القانون ، لكنهـا أجرمت .. تحرم ابنتيها اللتين تعمـلان فى المنازل من أى شىء ، الكبرى بدأت عيناها تتفتحان صارحت أمها يوما : « كل هـذه السنين أعمل ولا ألبس ولو قرطا من الذهب .. الا تتنازلين لى عن جنيهين من مرتبى لاعمل بهما جمعية فاشترى قرطا مثل غيرى من الشغالات ؟ » . الأم رفضت .. تريد أن تزيد من عدد ولائم العشاء عندها لا ان تنقصها ، وهربت البنت من منزل مخدومها ، الصدفة وحدها هى التى دلت الأم على مكانها فأعادتها للخدمة دون أن ترضيها .. ومن يدرى ربما كررت البنت فعلتها .. وربما وقعت فى المرة التالية فى يد من لا يرحم .. ولا أحد يجهل خطورة ضياع بنت فى هذه السن الحرجة ، الثالثة عشرة ، أليست هـذه أيضـا جريمـة ؟

كانت جريمتى ــ فى نظرى ــ أخف من جرائمهن .. على الأقل لم تكن ضد أمى أو أولادى ، ولكن ضد أناس لا تربطنى بهم أى صلة .. لكن لا .. حرام .. أمقتهن من كل قلبى حقا ، لكن هذا يجب ألا يجعلنى أظلمهن .. فى الحقيقـة هن مجنى عليهن ــ مثلى ــ أكثر منهن مجرمات .. أما المجرم الحقيقى ..

الذى دفعنا لكل ذلك ، فهو زوجنا المبجل •• اذهبوا واقبضوا عليه احضروه هنا •• فلو كانت هناك عدالة على أرض •• مثل عدالة السـماء لكان حريـا أن يقف هو مكانى الآن •• خلف القضـبان •

عندما وصلت الى هذا الحد كانت قواها قد بدأت تخور لدرجة اضطرتها أن تسند رأسها وتتشبث بيديها بحديد القفص حتى لا تسقط على الأرض •• وراحت •• هل فى اغفاءة أو فى غيبوبة ؟ لا أحد يدرى ! لكنها سرعان ما أفاقت فزعة على صوت الحاجب عندما عاد القضـاة ــ وكانوا قد دخلوا للمداولة ــ فصاح الحاجب صيحته التقليدية المشهورة : ــ محكمة ••

ســاعة الصــفر

جميع المعزين لفتت أنظارهم حالتى المنهارة .. راح كل منهم يواسينى بكلمة « تجلد يا رجل » .. « ما هكذا يكون الحزن » .. « تكاد أن تسقط من طولك » .. « هــذا قضاء الله ولا راد لقضائه » .. « كلنا أموات وهــذا مصيرنا جميعا فلا مهرب منه لأحد قط » .. « يجب أن تتماسك .. حتى أمام والدتها » .. الخ الخ ..

من أين لهم أن يعلموا ما بى .. بجــانب حزن أى أب على فلذته .. كان يخالجنى شـعور جازم بأننى أنــا الذى قتلتها .. بكل المقاييس أنــا السبب .. من الناحية المــادية أنــا الذى دبرت وضــع المتفجرات .. ومن الناحيــة الروحية أنــا الذى اضررت عامدا متعمدا بكل هؤلاء الناس .. ضررا بالغا .. فكان هــذا الانتقام الالهى .. ليس هــذا كفرا .. الا نعرف أن من أسمائه ــ سبحانه وتعالى ــ المنتقم .. وأيضا الجبار ؟ ..

لكن يارب •• هذا جزاء قـاس •• جـدا •• وما ذنب فادية •• الرقيقـة المسكينة •• لتدفع هى حياتها •• ثمنـا لاخطائى ؟ •• كان يجب أن أكون أنـا الذى يلقى حتفـه •• لكن لو حدث هـذا فما كان أهونه من جزاء ، فالحق أن الذى يعانى ويتعذب ليس هو من يلقى ربه •• وانما من يكتوى بجمر الفراق ولهيبه ••

نعم لم يكن جرمى بهذه البشاعة •• عدا أننى كنت مضطرا اليه بسبب ضرورة قصـوى •• وهل هنـاك ضرورة أهم من علاج ابنتى ؟ ، أكثر من طبيب أكد أنها لن تشفى الا بجراحـة فى القلب •• كما أجمعوا كلهم على أن هـذه الجراحة بالذات لم تجر فى مصر الا من عهد حديث جدا •• ولذلك فلم تزد نسبة النجـاح فيها عن ثلاثين بالمـائة • •أما فى الخـارج فقد وصلت النسبة الى تسعين ، هل يسمع أى أب ذلك ولا يفعل كل شىء كى يعالج ابنته •• ضناه •• وحبيبته •• أفضـل علاج ؟ •• ذلك الذى تزيد فيه نسبة احتمالات النجاح ، أقسم لو وجدت من يشـترى عينى بهـذه الآلاف العشرين المطـلوبة للسـفر وللجراحة •• لمـا ترددت فى انتزاعهما بيدى •• وان كان ذلك سيحرمنى متعة مشاهدة فادية •• لكن كان يكفينى أن ألمسـها بيدى •• وأن أسمع ضحكاتها تجلجل فى جنبات البيت •• بعد أن بتر مرضها القاسى تلك الضحكات فوق شفتيها من سـنين عديدة ••

من يومها ونحن ندور فى دوامة الاطباء والتحليلات والاشعات •• حتى كان القرار القاطع ، ولكن •• من اين لى بنفقات العلاج الرهيبة فى الخارج •• وأنا الموظف البسيط•• والنزيه فى نفس الوقت ؟ •• وفكرنا فى كل شىء •• اقتراض من الأقارب أو المعارف •• سلفية من المصلحة التى أعمل بها استبدال جزء من المعاش ، لكن وسيلة واحدة من كل هذه لم تف بالمبلغ المطلوب ••

وكان الحل الأخير هو بيع المنزل الذى ورثته عن أمى •• والذى لم أكن أملك أنا وزوجتى سواه ، لكن السماسرة جميعا سخروا منى •• واحداً أثر الآخر « ومن يشترى منزلا يسكنه مستأجرون •• يدفعون جميعا فى شققه الستة عشرة أربعين جنيها ؟ •• انهم فى هذه الحالة لا يعدون مستأجرين •• بل هم ملاكا لشققهم •• أى مشتر — حتى لو كان يرغب فى تبديد نقوده — لن يدفع أكثر من عشرة آلاف » ، وقال لى أكثر من سمسار « سلمنى المنزل خاليا •• أو حتى انقاضا ادفع لك فيه ثلاثين ألفا •• وربما أربعين » •• ولكن •• كيف أخليه ؟ •• لو اننى طلبت من أى ساكن به أن يتركه فقطعا لن يكتفى بالرفض •• وانما لابد سيصرخ فى وجهى •• وربما خنقنى !

وتمر الشهور وحالة فادية تزداد سوءا •• وأنا وأمها

نكاد أن نجن •• ونحن نراها تذبل أمام أعيننا ولا نجد فى أيدينا وسيلة •• حتى أصبحت حياتنا كحطـام مركب غريق •• تتقاذفه الأمواج . ولم يكن الشاطىء الذى رسـا عليه الحطام أخيرا شاطئا مأمونا •• لكننا اندفعنا اليه دفعا ، اضطرتنا حالة فادية التى تدهورت فجـأة لتحديد موعد لاجراء الجراحـة هنـا فى مصر •• رغم ما فى ذلك من محاذير •

ذات يوم ــ قبل موعد الجراحـة ــ ظننت أن الفرج قد جاء •• مع خطاب سلمه لى رجل البريد . ويالالتناقضات •• منذ عشرة أعوام فقط •• كان مثل هـذا الخطاب يعتبر كارثة •• المنزل ظهرت به بعض التشققات •• وبعد فحص مهندسى التنظيم له قرروا اخـلاء جميـع القاطنين به لخطورة حالته . قـالت زوجتى :

ــ لولا خشيتى من لوم جيراننا السكان •• وأيضا مراعاة لشعورهم لاطلقت زغرودة ! ••

خرج الجميع من المنزل يبكون •• فى حين سجدت أنـا أصلى لله •• يبدو انه رأف بحالنا وكتب لابنتى الشفاء من عذاب استمر أعواما طويلة وبدأت من فورى أجرى بعض الاتصـالات بسماسرة العقارات •• أردت الا أضيع يوما واحد •• فاليوم قد يؤثر سلبا أو ايجابا على نتيجة الجراحة ، حتى كانت الصدمة الكبرى •• المستأجرون رفعوا قضية مستعجلة •• وجاءوا بعدد

من المهندسين والخبراء .. الذين قرروا أن المنزل ليس آيلا للسقوط .. وانما فقط يحتاج لبعض الترميم وبشهامة منقطعة النظير قرر السكان — رأفة بحالى — أن يدفعوا هم نفقات الترميم ثم يستقطعونها من الايجار .. حيث القانون العجيب يلزم صاحب المنزل بدفع هذه النفقات .. رغم أنه من ذلك الترميم لا يستفيد قط .. بل ربما يضار تماما .. بينما المستفيدون الوحيدون هم السكان .

وكدت أفقد عقلى وأنا أرى أمل عمرى يتسرب من بين يدى .. لا .. هذا لن يكون أبدا .. يجب أن ينهدم هذا المنزل قبل أن يبدأ عمال الاصلاح مهمتهم ، ولو فعلتها بيدى . واستطعت اقناع نفسى — أو ربما كان هو الشيطان الذى فعل — بحجج عديدة أولا أننى ساهدم المنزل وهو خال .. أى أنه لن تكون هناك خسائر فى الأرواح ، ثانيا هذا المنزل منزلى .. وقد أعطانى الله الذى هو أقوى من أى مشرع حرية التصرف فيما أملك ، ثالثا هؤلاء السكان قطنوه أعواما طويلة لم يدفعوا خلالها سوى ملاليم .. فيكفيهم هذا ، رابعا هذا القانون الذى يجعل عقد الايجار مؤبدا — بسعر لا يتزايد .. بل لقد تناقص — أكثر من مرة رغم الزيادة الرهيبة فى كل شىء — قانون جائر .. وغير شرعى .. ولايوجد له نظير فى أى دولة فى العالم ، خامسا حتى لو كان هدمى للمنزل سيضر بأسر

عديـدة •• فاننى لا أفعـل ذلك لاكسب الآلاف أكتنزهـا أو أستثمرها •• وانما لانقذ حياة أعز انسانة لدى •• أى أن ضرورتى أكثر الحاحا من ضروراتهم جميعا ••

بعد اقتناعى هـذا بقى أمر واحد •• كيف أتمم ذلك دون أن يبدو أنه بفعل فاعل ؟ ، حتى أخبرنى معلم كبير من المقاولين المتخصصين انه يوجد نوع من المتفجرات لا يترك أثرا وسـط الانقاض يمكن أن يدل عليه •• فوعدته لو ساعدنى فى هـذا الأمر •• أن أبيعه أرض المنزل بعد هدمه ، واتفقنا على كل شىء•• الثمن وطريقة الدفع وساعة الصفر للتفجير الخ الخ ••

وكنت حين صدر الأمر باخلاء المنزل قد انتقلت مع زوجتى وابنتى الى منزل شقيقتى التى زوجت أولادها جميعـا •• ومن ثم تقيم بمفردها ، لكننى قررت أن أسافر الى الاسكندرية قبل هدم المنزل بيومين •• منعا للشـك نهائيـا •• حتى لو فرض المستحيل واستطاع الخبراء اكتشاف أى آثار للمتفجرات ، وكان سفرى مبررا تماما •• قلت لزوجتى :

ـ حيث أن شقيقك قاض وقانونى ضليع •• فاننى سأذهب اليه عسى أن يدلنى على محـام بارع يستطيع أن يقـدم لى استئنافا لحكم المحكمة بترميم المنزل ••

فى الصباح الموعود •• جلست الى مائدة الافطـار وأنـا أحاول السيطرة على انفعالاتى •• حتى لا يشك شقيق زوجتى

فى شيء .. بل امعانا فى اضفاء الطبيعية على تصرفاتى لم أفتح جريدة الصباح على صفحة الحوادث رغم لهفتى الشديدة .. التى حولت ضربات قلبى الى ما يشبه دقات الطبول ، مع ذلك بدأت أقلب الجريدة بالترتيب حتى جاءت الصفحة المرغوبة .. قرأت المانشيت الأول ورقص قلبى « تهدم منزل آيل للسقوط فى حى السيدة زينب » .. ثم قرأت المانشيت التالى فقفزت من مكانى كالملدوغ وأنا أطلق صرخة هلع « مصرع ابنة صاحب المنزل تحت الانقاض » ! كلمة واحدة رحت أرددها كالمحموم :

ــ لماذا ذهبت فادية الى المنزل لماذا ذهبت فادية الى المنزل ؟ ! . وسمعت خلفى قهقهة مدوية فصرخت أعتب عليه .. على الشيطان :

ــ لماذا تضحك منى الآن وأنت الذى أوحيت لى بالفكرة ؟ ! .. قالت لى زوجتى من بين دموعها :

ــ طلبت مدرسة العربى بمدرسة فادية من الطالبات الرجوع الى بعض كتب العام الماضى ، وبالطبع لم تكن قد صحبتها معها من المنزل المشئوم فذهبت لاحضارها ! ..

تمتمت ! ــ ولم تختر سوى هذا اليوم وهذه الساعة ــ ساعة الصفر ــ بالذات ؟ ! ..

لكنها لم تكن مصادفة .. أبدا .. لا تتم المصادفات بذلك

الترتيب المتقن •• أنه تدبير من القـدر •• الجزاء •• جـزاء ما خططت ونفذت ، من سخرية الاقدار — وآه من القدر عندما يسخر — انني بما فعلت قضيت على حياة ابنتي في الوقت الذي كنت أظن انني به أنقذ تلك الحياة !

انه درس لي •• كان يجب أن أسلم أمري لله •• وأكتفي بأن أدعوه وأتوسـل اليه أن ينجي فادية •• فلربما استجاب لي ونجحت الجراحة في مصر — رغم ضآلة نسبة احتمالات النجاح — دون أن أتسبب في تشريد العديد من الأسر •• أعرف جيدا قسوة ظروف بعضهم •• وما يمكن أن يشكله حرمانهم من شققهم من عذاب واذلال وحيرة ومعاناة ••

ولكن •• ما أفدح ما دفعت من ثمن لقاء هـذا الدرس •• دنياي بأكملها •• لم يبق لي الآن الا آخرتي •• وكل ما أمل فيه — بعد أن ضاع مني كل ما كنت أعتقده من آمال — أن آوى في الدار الآخرة الى الجنة •• كي أكون مع ابنتي الشـهيدة التي دخلتها قطعا من أوسع الأبواب ••

أدعوك يارب •• يا غفور يا رحيم •• أن ترى في صـدمة حرماني من حبيبتي الجزاء الكافي على فعلتي الآثمـة •• حتى لايكون هناك عندك بقية من جزاء •• على أن أسـددها في الآخرة ، انك على كل شيء قدير •

من عهد أمنا حواء

كانت أول مرة أراه فيها معها .. قام يقدمها الى !

ــ عزيزة .. زوجتى ..

تماما نفس الصفة التى كثيرا ما تخيلته بقدمنى بها ، كم كان يسكرنى مجرد تخيلها ، نعم .. أعترف اننى لم أحبه بقلبى فقط .. بـل وبغرورى الانثوى أيضـا ، يسرى لاعب الكرة الشـهير .. الذى يجن اعجابا به عدد كبير من فتيات مصر .. يختارنى أنـا من بين كافة من التقى بهن ! ..

مجرد التفاته الى أول مرة سرنى وخفف كثيرا من مرارة هزيمتى فى التنس أمام زميلتى سـعاد .. الفائزة يصفقون لها ويهللون .. بينما لم يحدثنى أو يهتم بى أحد ، وفجـأة وجدته بجوارى يبتسم لى .. بادرنى :

ــ اعتذر اننى أتحدث اليك دون سابق معرفة .. لكننى شاهدت المباراة من أولها وأحببت أن أهنئك !

دهشت •• خيل الى أنه يسخر منى ، لكنه أردف :

ـ ليس من العدل أن تكون التهنئة من نصيب الفائز فقط، فكل من يلعب بفن وحماس وجدية يستحق التهنئة •• وأنت لعبت كأفضل ما يكون •• وبذلت كل وسعك •• وهزمت بشرف •

ابتسمت له بامتنان ، وخيل الى أن وجهه ليس بغريب على •• فجأة هتفت :

ـ كابتن يسرى •• لاعب الكرة المشهور؟ •

ـ أنا اسمى يسرى •• وألعب كرة قدم •• أما المشهور هذه فهى من عندك أنت !

كانت المجموعة لاتزال تلتف حول سعاد •• وأكثر من شخص يحاول أن يقدم اليها المرطبات ، قال وكأنه يقدم اعتذارا عن تصرفات الباقين :

ـ هل تسمحين بأن أقدم اليك كوبا من العصير ؟

وقبلت بسرور ، استطرد هو ونحن نشرب :

ـ لم تكن الرياضة فى يوم من الأيام نتيجة وحسب •• الرياضة الحقة هى اللعبة الجيدة •• النظيفة ، وفقط يلام من يهمل فى لعبه أو يتهاون ؛ أنا مثلا عندما نكسب احدى

المباريات وأرى أن الفريق الآخر لعب بندية فاننى أعلن ذلك بأعلى صوتى ، أما اذا هزمت فابدا لا أغضب ولا أحقد .. طالما فعلت ما بوسعى ، فى الحال أتقدم لأفراد الفريق المنافس وأهنئهم، ليس كأمر شكلى ولكن من كل قلبى ، فطبعا كل لعبة لابد أن يكون فيها غالب ومغلوب ، ومن يهزم اليوم سيكسب غدا ..

بعدها استمرت صداقتنا .. طويلا .. نمت .. كللت الأمانى حواشيها .. أصبحت حبا .. حبا كبيرا ملك على شغاف قلبى .. تمنيت أن تتوج ذلك الحب بالزواج ، أصبح هذا الحلم شغلى الشاغل ليلى ونهارى .. لا أكتفى بمجرد التمنى بل أرتب أيضا .. كيف ستكون علاقتنا بعد الزواج .. سأسعده .. سأفعل كافة ما بوسعى كى أرضيه .. ليس هذا فقط .. سأكون ملاكه الحارس الذى يقف بجواره يرعاه ويحميه .. حتى من نفسه ! ، لن أدعه يسهر .. سيكون فى ذلك حرمان لى من متع وحفلات عديدة .. لكننى سأضحى حتى يكون دائما فى كامل لياقته ، لن أغضب اذا حرمت من صحبته فترات طويلة ما دام يتمرن .. أنا رياضية أيضا وأعرف ما يفيد اللاعب وما يضره .. من مأكل وتمرين وراحة ، واذا كانوا يقولون أن خلف كل عظيم امرأة .. فسأقف أنا خلفه حتى يصبح لاعبا عظيما ، لقد ظللت أياما أرقب بقلق نتيجة مسابقة أحسن لاعب.. وأعز أمنية لى أن يفوز هو بالمركز الأول .. ولم يخفف من ألمى

حين جاء ترتيبه الثالث ســوى أملى فى أن يصبح الأول فى العام القادم .. حينما أكون بجانبه ، وسيعرف وقتها السبب والمتسبب فى هذا التقدم والنجــاح والصيت الذائع .. الذى حتما ستصل أصداؤه الى النوادى الكبرى فى العالم .. فتحــاول الاتصــال به والتعاقد معه .. ترى ماذا يكون موقفه ؟ ، لاداعى للتفكير الآن .. وقتهــا سنتدارس الأمر لنرى أيهمــا أكثر فائــدة لنا ولبلدنا .. اللعب فيها .. أم رفع اسمها بالخارج ؟ ، وأنــا خلفه فى كل كفاحه .. وبجواره فى كل نجاحه !!

لكن الشهور تمضى وذلك الحلم لا يخرج الى عــالم الحقيقة .. وكأنى أحاول عبثا أن أحرك تروس الانتظار لشىء لن يجىء ، حتى كان أحد الأيام .. جلست فى حديقة النــادى أنتظره حين رأيت صديقتى نادية فجــأة أمامى .. كأنما انشقت عنها الأرض ، سألتنى بخبث !

ـ تجلسين وحدك ؟ ! .. أين يسرى اذن ؟ ..

ـ سيأتى بعد قليل .

ـ هبه .. ومتى سنشرب الشربات ؟ ..

وتنهدت بأسف :

ـ لست أدرى .. ربما لا يحدث ذلك على الاطلاق .

ـ يا الهى •• ألستما متحابين ؟ ••

ـ بالتأكيـد •• لكن الغريب أنه لم يفاتحنى قـط فى موضوع الزواج ••

ـ لمحى له أنت ! ••

ـ مستحيل •• فكرامتى فوق كل شىء ، حقا أنـا فتـاة أسبور •• لكننا لم نصـل لهذه الدرجة ، مازالت لنا تقاليد •

سكتت نادية قليلا كأنها تفكر •• ثم صاحت فجأة :

ـ اسمعى •• ما المكافـأة التى تمنحينها للشخص الدى يدالك على فكرة تجعله يشدك الى المـأذون شدا ؟ ••

ـ أعطيـه روحى •• لكن لا •• روحى ملك ليسرى وحده •• أعطيه أى شىء يطلبه ••

ـ هذا أفضل •• فماذا عساى ـ بالله عليك ـ أفعـل بروحك ؟ •• اننى أريد قطعة كبيرة من تورتة الزفاف ! ••

ـ موافقة •• ما هى هذه الفكرة ؟ ••

ـ فقط لكى تنجح هـذه الفـكرة لابد أن يكون فعلا يحبك •• ولو قليلا ••

ـ هو طبعا يحبنى ••

ـ هل صارحك بذلك ؟؟

ـ آ .. لا .. لكن لى قلب يحس وعينان تريان ..

ـ شيء جميل .. الفكرة أن نظهر له أحد الأشخاص على أنه تقدم لخطبتك .. الرجل عـادة لا يهتم كثيرا طالمـا الفتـاة أمامه .. وعندما يتصور أنها توشك أن تفلت من بين يديه .. تزيد محاسنها جدا فى عينيه ويسرع باقتناصها ..

ـ فكرة رائعة .. برافو عليك يا نادية .. تعرفين .. انها خطة مدهشة .

ـ من باب التواضع هى ليست فكرتى .. انها فـكرة قديمـة .

ـ أعرف ذلك طبعا .. لقد شاهدتها على الأقل فى عشرة أفلام مصرية !!

ـ ليس فقط فى الأفلام .. بل أيضا فى الواقع .. ايناس مع فريـد .. وأخى مع زوجته .. أنـا متأكـدة انه لم يكن ليتزوجهـا لولا أن حكت له عن ذلك الشـاب الذى يتعجل خطبتها .. أيضا فوزية ونبيل جيراننا ..

ـ أعرفهم كلهم .. لكن من أين نأتى بهذا الشخص ؟

ـ أحد أقاربى انضم للنادى حديثا .. هو يعزنى جدا

ولا يرفض لى طلبا ، وليس هنـاك خوف أن يأخذ المسألة بجد فهو أيضا قلبه مشغول .

ـ ربما يخشى أن تعلم فتاته .

ـ انها من الاسكندرية .. عموما الموضـوع برمته لن يستغرق دقائق ولا أحد سيعلم به قط .

جاءت ساعـة الصفر فى تنفيذ الخطـة .. وتمت الخطوة الأولى منها على ما يرام .. جلست مع الدكتور عزت تتحدث ودارت نادية فى أرجاء النادى حتى عثرت على يسرى وبطريقـة ما استدرجته الينا .. الخطوة الثانية تمت أيضا حسب الخطة .. جلسنا الى مائدتنا بعد أن قدمت الدكتور الى يسرى .. الذى أخبره بأنه يعرفه بالسمع من صـديق له كان يعالج فى عيادته الكبرى ، ظل يسرى ينظر الينا نظرات قلقة مستطلعة .. الأمر الذى جعل قلبى يرقص طربا .. تكاد الخطـة تؤتى ثمارها ..

وحسبما يقضى البند الثالث من خطتنا جاء الجرسون ليعلن للدكتور انه مطلوب على التليفون ، وما كاد يتوارى عنا حتى غمزت لى نادية بعينها قائلة :

ـ شخصية رائعة الدكتور عزت هذا .

قلت بتحفظ :

ـ مش بطـال •

ـ انه مجموعة وليس شخصا واحدا •• ضابط وطبيب وأديب ورياضى •• أننى أراكما لائقين لبعضكما تماما •• هل ألبسك الشبكة ؟

ـ أوه لا •• ليس بعد ، لقد طلبت من أبى مهلة للتفكير •

وسأل يسرى :

ـ وهل والدك موافق ؟

ـ نعـم ••

ـ وأنت ؟

ـ لست أدرى •• فى الحقيقة اننى لا أشعر نحوه بأى حب •• لكنى حائرة •• لا أدرى بأى سبب أرفضه ••

قالت نادية •• حسب الخطة أيضا :

ـ ياه •• لقد كدت أنسى موعدى مع دكتور الاسنان •• لولا أن نقح ضرسى فجـأة •• كأنه يذكرنى بالموعد •• بعد اذنكما ••

كانت الخطوة الأخيرة من الخطة تفترض أن يسرى سيمسك بيدى فى غيرة عصبية وهو يقول فى صـوت خافت لكنه قاطع : « كيف تتزوجين شخصا آخر ؟ •• ألا تعلمين اننى أحبك ؟ اننى

لن اسمح لأى مخلوق على وجه الأرض أن يأخذك منى »
الخ الخ . نظرت الى الأفق البعيد منتظرة صوت يسرى
يحدثنى .. لكن الذى سمعته كان صوت الكرسى .. يتحرك ..
التفت لأجد يسرى واقفا يستعد للانصراف .. وتقفز مشاعر
خيبة الأمل على ملامحى .. لكنه لا يتنبه اليها . مد لى يده
قائلا بابتسامة هادئة :

– مبروك يا زينب مقدما .. آلف مبروك .. ربنا يتمم
بخير ان شاء الله ..

لم أكد أفيق من الذهول الذى استغرقنى ثوان حتى كان قد
توارى بعيدا .. وبقيت مكانى فترة طويلة لا أدرى ماذا أفعل
حتى لم أجد فائدة من البقاء فقمت عائدة الى البيت وأنا فى
شدة الألم .. كيف حدث هذا ؟ هل أحس يسرى اننى
جرحته ؟ اطلاقا لم يحدث . اذن هل أعتبر ما حدث دليلا على
أن يسرى لم يكن يضمر لى أى حب أم أحاول اصلاح الأمر ؟
وكيف أستطيع أن أفعل ؟ هل أذكر له اننى كنت أقوم بالتمثيل
عليه ؟ !

استمر الصراع بين قلبى طرف أول وعقلى وكبريائى طرف
ثان حوالى أسبوع قضيته فى هم وكرب ، أخيرا تغلب الطرف
الأول فقمت أرتدى ملابسى وأنا أرتب فى ذهنى ما سأقوله –

بعد أن أخلق أية مناســبة لهذا الحديث ــ « بامعان التفكير رفضت خطبة الدكتور عزت لأن قلبى متعلق بآخر » •• علّه يفهم أنه هو ذلك الآخر ، عند الباب قابلت نادية قادمة لزيارتى •• بادرتنى وكأنها تعزينى :

ــ الحقيقة يا زينب اننى تضايقت جدا •• لكنى لا أريدك أن تحزنى •• فطالمــا لم يكن يحبك فهو لا يستحق أن تتألمى من أجله •

دق قلبى بعنف :

ــ عم تتحدثين ؟

ــ ما هذا ؟ ألم تقرئى جرائد اليوم ؟ ••

ــ ماذا بها ؟

ــ عن زواج يسرى يعنى ••

كدت أسقط من فرط ذهولى •• وأسرعت الى الجريدة •• كان الخبر مقتضبا •• عن عقد قران اللاعب الشهير يسرى على فتاة من أسرة محافظة ، قلت فى صوت شبه باك :

ــ لعنة الله عليها •• تلك الخطة •• هى السبب ولاشك •

ــ أنــا من أول الأمر قلت لك ان نجــاح هذه الخطــة

مرهون بحبـه لك .. لأنه لو كان يأخذ الأمر على أنه تسـلية أو مجرد صداقة بريئة فانه ....

قاطعتها :

ــ أنـا متأكدة أنه كان يحبنى .

ــ مستحيل .. لو أنه يحبك لحاول الاستئثار بك .

ــ عموما أنـا لا آلومك .. فأنت لم ترغمينى .. وأنـا لدى عقل وأستطيع التمييز ..

ــ اننى لا أقول ذلك كى أدافع عن نفسى .. لكن لانى لا أريدك أن تشـعرى بالمرارة أو أن تلومى نفسـك بتوهـم الخطأ .. حيث هـذه الخطة ناجحة بنسبة مائة بالمـائة .. وقد جربت مئات وآلاف المرات فلم تخب أبدا .. كما قلت لك انهـا حيلة قديمة جدا .. أقدم من الأهرامات ... أقدم كثيرا .. من أيام أمنا حواء ! ..

ــ هل استعانت أمنا حـواء برجـل آخر كى تجعل آدم يشعر بالغيرة فيسرع بالزواج منها . ؟

ــ ليست حواء بنفسها ولكن ابنتها .. وبسبب هـذه البنت قتل قابيل أخاه هابيل .. ما هـذا ؟ ألا تعرفين التاريخ ؟ !

ـ بالله عليك يا نادية ·· بالى ليس رائقا لدعاباتك اليوم ··

ـ فشل الخطة هذه المرة كان بسبب خطأ فى التقدير ·· تقديرك أنه يحبك وهذا لم يكن شعوره قطعا ·· والدليل عقد قرانه بهذه السرعة التى تعنى أنه كان يعد عدته للأمر من وقت طويل ·· والا فهل يستطيع انسان أن يفكر ويقرر ويخطب ويتزوج فى أيام ؟ ، ثم انت لم تكونى تتضاحكين أو تتهامسين مع الدكتور كما تفعل بعض الفتيات حتى تقول انه غضب ··

نعم ·· معها حق ·· كنت فى جلستى مع الدكتور متحفظة تماما ·· قلت صراحة اننى لا أحبه ·· واننى مترددة فى قبوله ·· كان ذلك كفيلا باسعاده وليس باغضابه حتى يتزوج فى أسبوع ـ هذا اذا كان يحبنى ـ ثم هل كانت العروس جاهزة فوق الرف كقرص الاسبرين ·· الموضوع فى أجزخانة المنزل ·· تحت الطلب ؟ أكثر من ذلك أنه لم يبد عليه ساعتها شىء من الغضب ·· على العكس ·· كان يبتسم وهو يهنئنى بحرارة ·· عموما هذا نصيبى ولن أحصل على أكثر مما قدر لى ، لأحاول اذن أن أعود لرياضتى ربما استطعت عن طريق اغراق نفسى فيها تضميد جراح قلبى ·· وان كنت متأكدة من أن هذه التجربة التى أصابت أعماقى فى الصميم قد تركت بصماتها على من الداخل والخارج · مضت أسابيع لم التق فيها بيسرى على الاطلاق ··

حتى كان عصر اليوم •• عندما رأيتـه يجلس مع عروسـه الى احدى الموائد ، وهم واقفا يرحب بى ، قدم عروسه الى ثم دعانى للجلوس معهما ، سألنى بعد ثوان عن الدكتور عزت وأين هو •• أجبته شاردة :

ــ لست أعرف ••

ــ ألم يحضر معك الى النادى وتنبهت :

ــ هه •• لا •• أقصد •• هو الآن مسافر !!

قبل أن أستأذن لأقوم جاءت نادية ، ما أن رأت يسرى حتى هللت تهنئه •• وتثرثر :

ــ لم نرك من فترة طويلة يا كابتن •• طبعا يا سيدى •• شهور العسل بقى ، لا تعرف الى أى حد تقدمت زينب فى التنس لم يعد أحـد يستطيع أن يهزمهـا •• على فكرة هى عندهـا مباراة بعد قليل •• هل تحبان مشاهدتها ؟

ــ طبعا •• طبعا •• هيا بنا ••

فى الطريق الى الملعب اسـتأذنت العروس السـعيدة فى الذهاب الى دورة المياه •• وكأن نادية كانت تنتظر هـذه الفرصة من أجيال •• سألته :

ــ والله بتعرف تخبى يا كابتن •• كل هذه الصحبة ولم تقل لنا انك مرتبط !

ـ لقد جاء الأمر كله مفاجئا ..

ـ غير معقول .. لابد كنت تضـع عينك عليها من زمن طويـل ..

ـ أبدا والله .. هى ابنة خالتى .. وكانت والدتى ترغب فى زواجنا لكن أنـا من جهتى .. أقصـد يعنى .. كان هنـاك حب كبير ملأ على حياتى ..

قاطعته نادية ببساطة أربكتنا كلانا :

ـ زينب ؟

وجم يسرى وظل ينقل نظراته بيننا حائرا .. وأخيرا تنهد مستسلما :

ـ أليس هـذا غريبا .. لم أصرح لها قط بشاعرى رغم أننا كنا خاليين .. ثم أكشف مكنون قلبى اليوم بعد .. هيه .. انها الظروف .. أو بالأصح لسانك المنفلت يا نادية .

شحب وجهى كالأموات وارتجفت يدى بينما نادية تضغط عليها فى محـاولة لتهدئتى . عادت تحاول استدراجه فى الحديث :

ـ وهكذا اضطررت أنت أن تسير حسب رغبة السيدة والدتك ؟ !

ـ طبعا لا .. لم يكن الأمر بهذه الصورة .. عزيزة يتيمة

الأبوين وقد تربت معنا . كانت أمى قد وعدت أمها على فراش الموت أنها ستفعل ما فى وسعها كى توفر لها السعادة .. سعادة البنت فى نظر والدتى تكتمل بزواجها .. لذلك ألحت على كثيرا ان احقق وعدها لشقيقتها .. لم أكن لأستطيع أن أصدمها فى آمالها .. لذلك كنت أنتظر الوقت المناسب كى أفاتحها بمن اختارها قلبى .. لى صديق ضابط شرطة فى المحلة كان يتردد على منزلنا كثيرا .. أحسست أنه يرغب فى عزيزة .. وتمنيت أن يتقدم لخطبتها حتى تطمئن والدتى عليها .. ذات يوم جاءنى خطاب من صديقى اياه يلمح فيه برغبته فى هذه الخطبة .. كان هذا أسعد يوم فى حياتى .. قبلها لم أستطع أن أصرح لزينب بشعورى .. فى ذلك اليوم اعتزمت أن أصارحها .. وجدتها قد خطبت .

قالت نادية بحدة :

ـ لم تكن خطبتها قد تمت .. كان مجرد مشروع ..

ـ مشروع كان مقدرا له النجاح لو كتمت أنا ما عندى .

ـ ومشروعك أنت ؟ كان الأولى أن تفكر فى نجاحه .. لو أنك كنت تحب حقا ..

ـ كنت أحب حقا .. لذلك فكرت فى سعادتها ومستقبلها

هى ، ان أحدا لا يعلم مقدرتى المالية •• اننى لم أحترف •• عدا أن نادينا ليس غنيا •• ومن ثم فاننا نعيش ـ أنا ووالدتى وعزيزة ـ على حوالى ستين جنيها شهريا •• ربما لا تكفى فقط ثمنا لبنزين سيارة الدكتور عزت •• الذى يعيش حاضرا لامعا وأمامه مستقبل أكثر لمعانا •• قدرت أن زينب ستكون معه هو أكثر راحة وسعادة ، مهما كانت درجة الحب فهو وحده لا يكفى •• أنا لست آنانيا ولم آكن كذلك يوما ، وعندما يغلبنى أحد فى آية منافسة ـ سواء كان ذلك فى الملعب أو خارجه ـ فاننى أهنئه من كل قلبى •• طالما كان هو أجدر منى بالفوز •

بالطبع لم ألعب المباراة اليوم •• لم يكن فى استطاعتى حتى أن أمسك بالمضرب ، ظللنا طوال الطريق فى عربة نادية صامتين •• وفى منزلى بدأت تحدثنى بلهجة تفيض بالأسف :

ـ كم آنا متألمة يا زينب •• ليتنى ما قابلتك يومها •

ـ لا تضايقى نفسك يا نادية •• كنت تقصدين الى مساعدتى •• واذا كان هناك من يستحق اللوم فهو آنا •• الكل يعرف روح يسرى الرياضية •• طيلة عمره لم يحاول قط أن يغتصب النصر بالخشونة أو بالاحتكاك بأحد •• لدرجة أن النقاد ذكروا أن فوزه بالمركز الثالث كان لاخلاقياته قبل براعته فى اللعب •• وآنا طبعا آدرى من كل هؤلاء بروحه

وأخلاقه هـذه من أول يوم رأيته فيه ، فاذن كان على أن أتوقع روحه الرياضية تلك فى لعبة الحب .. كما هى تماما فى لعبـة الكرة .

ــ الغريب يا زينب ان الخطة فى حد ذاتها ــ ورغم كل ما حدث دائما تنجح مع الأشخاص العاديين ، لأن الحب ما هو الا أنانيـة ورغبة فى التملك .. ويوم أن قرأت خبر زواج يسرى قلت لك أن سبب فشـل الخطـة خطـأ فى التقدير ، ومازلت عند رأيى .. فقط يومها كانت فكرتى أننا أخطأنا فى تقدير مشاعره نحوك لكننى اليوم عرفت أن خطأنا كان فى تقدير روحه واخلاقياته .

الثبات على المبدأ

هى جارتنا اللطيفة جدا جدا .. السيدة عصمت ، وأنـا أحبها كثيرا فليس هــذا اللطف هو كل ما تتحلى به .. بل ان لها مزايا عديدة حسنة للغاية .

احدى هذه المزايا مثلا .. ثباتها على المبدأ .. ! وقد طرقت هذه العبارة سمعى أول مرة منذ أعوام طويلة .. طويلة .. عندما كان تلاميذ المدرسة الكائنة أمام منزلنا يخرجون فى مظـاهرات صاخبة داعية بحياة زعيم ما وسقوط زعيم آخر .. ثم يهتفون بصوت يشق عنان السماء « يحيا الثبات على المبدأ .. ! »

لكنهم لم يكونوا يثبتون على مبدأ .. فلا تكاد تمضى شهور حتى يتظاهرون ثانية لزعيم آخر . ومطالب جديدة ..

أما جارتنا السيدة عصمت فقد كان ثباتهـا على مبدأها محيرا للعقول .

ـ عقلى أنـا على الأقل ـ رغم أنها لم تتظاهر يوما ..
ولم يرتفع هتافها بحياة الثبات على المبدأ !

عندما انتقلنا الى منزلنا الحـالى بالهرم .. تاركين وراءنا الحلمية بأصـدقائها وذكرياتها ـ وكان ذلك منذ حوالى ثمانية أعوام كنت أظن اننى لن أعوض صديقات الحلميـة مهد طفولتى ومرتع صباى .. والتى شهدتنى بعد ذلك عروسا ثم أما .. حتى اكتشفت اننى كنت فى ظنى متشائمة بعض الشىء .. فلم تكد تمضى على أقامتنا فى المسكن الجديد أسابيع حتى بادرت جارتنا السيدة عصمت الى زيارتنا للترحيب بنا وبجيرتنا السعيدة باذن الله ، ورغم انها كانت أكبر منى كثيرا الا اننى أحببت جلستها اذ رأيت فيها الطف سيدة قابلتها فى حياتى ، وعندما ذهبت لارد لها الزيارة صحبت معى ابنتى الوحيدة عزة .. وهنـاك رأيت لأول مرة ابنتها الكبرى منال .. وكانت فى طول ابنتى مرتين تقريبا .. الأمر الذى جعلنى أعنفها عندما راحت تنادى منـال باسمها مبينة لها ان الذوق والأدب يقتضـيان منها ان تناديهـا « بأبلة » لكن عصمت هانم احتجت ضاحكة :

ـ عزة لم تخطىء أبدا .. فمنال لا تكبرها الا ببضـع سنوات .. انها فى الخامسـة عشرة .. فقط هى طويلة بعض الشىء .. مثل عماتها .. يومها صدقتها .. فلم يكن هنـاك ما يدعو الى التكذيب .. وبعض البنات الصغيرات تبدو عليهن

الأنوثة المبكرة فعلا . ثم مر عامان كبرت فيهما أنا عامين .. وكبر فيهما كل انسان بل وكل حيوان ـ عامين أيضا .

ثم تصادف ان كنت فى زيارة مدام عصمت عندما ظهرت نتيجة امتحان شهادة الاعدادية حيث جاءت منال تتقافز وتزف لنا بشرى نجاحها ... وقبلتها مهنئة بالنجاح لكننى انتهزت فرصة خروجها لأمر ما وأبديت لوالدتها دهشتى من تأخرها فى الدراسة .. لكن عصمت هانم ضحكت ـ ألم أقل لكم من أول الأمر انها خفيفة الدم ـ قالت :

ـ ليس غريبا ولا أى شىء .. فرقتها مناسبة لسنها تماما .. سن الخامسة عشرة .. !

وفتحت فمى كالبلهاء لكنى بالطبع لم أستطع أن أقول شيئا ، حتى كانت احدى زيارات جارتى لى ـ بعد مرور حوالى عامين آخرين ـ اذ بها تقول لى بدهشة من شاهد بعضا من أهل المريخ يخرجون من طبق طائر :

ـ تصورى ابنتى منال تقدم لها أكثر من عريس ؟ ..

ـ وما الغريب .. هل هى لا سمح الله .. دميمة ؟

ـ كلا بالطبع .. لكن مهما كان جمالها هل يعقل ان يتقدم عرسان لفتاة صغيرة بهذا الشكل ، الناس عندما يرونها

يظنونها فى سن تلائم الزواج .. انها ليست أكثر من طفلة .. !
واستطردت وهى تضحك :

ــ أى زواج هــذا لبنت فى الخامسة عشرة ؟ !

وبصعوبة استطعت ان أغلق فمى على ما عن لى من كلام .. اقنعت نفسى بأن الأمر لا يعنينى طالمــا أنــه ليس لدى عريس لهذه الفتاة العجيبة .. التى لا تتقدم أبدا فى العمر ، ومر عامان جديدان ــ ويبدو أنه كان يحلو لجارتى هــذه ان تثير أعصابى مرة كل عامين ــ فعندما ذهبت لزيارتهم فى ذلك اليوم قدمت لى الشربات فأخــذت أرتشف منه على مهــل وأنــا أســأل عن المناسبة وقالت السيدة عصمت وهى تضحك :

ــ لن تصدقينى عندما أقول لك :

ــ سأحاول أن أصدق .. فقط قولى ..

ــ منال خطبت .. !

ــ هكذا .. ألف مبروك .. ومتى يتم الزفاف باذن الله ؟

ــ ليس قريبــا .. بعد فترة .. حوالى ســنة .. حيث القانون ينص على ان الحد الأدنى لعقد القران ستة عشر عاما ومنال الآن فى .. الخامسة عشرة .. !

وكانت الكذبة هــذه المرة .. أكبر من المرات السابقة ..

لذا لم أستطع أن أبتلعها بسهولة •• مثل كل مرة •• وسارعت بشرب باقى كوب الشربات دفعـة واحـدة •• حتى أستطيع « التبليع » •

بعد أقـل من عـام حضرت حفل الزفـاف •• وحاولت جهدى الا أحول الحديث مع السيدة عصمت الى سن منال •• حتى يمر الحفل — بالنسبة لى أنـا على الأقل — بسـلام ، لكنها ذكرت لى •• ولا تحضرنى المناسبة •• ان عمر العروس ستة عشر عاما ، وقد يلومها لائم على انحرافها عن مبدئها •• لكنى أرجو من الجميع أن يلتمسوا لها العـذر ، فأنه انحراف بسيط أولا ••• وثانيا الجأتها اليه الضرورة القصوى !

ومضى على ذلك الزواج عام ونصف العام حتى علمت أمس فقط بأن العروس منالقد وضعت طفلة فذهبت لأقوم بواجب التهنئة ، لكنى لم أر « الوالدة » •• اذ كانت نائمة ، كما قالت لى والدتها — جارتى — أنها تعبت كثيرا فى عملية الوضـع التى استغرقت وقتا طويلا •• وأردفت :

— غالبا السبب انها كانت موهومة جدا •

— طبعا معذورة •• حيث هذه أول مرة •

— فعلا •• وفوق ذلك صغيرة جدا •• لا تعرف عن أمور الدنيا شيئا •• فتاة تضـع وهى فى سن الخامسة عشرة •• كان الله فى عونها •• !

يا للهول .. لقد عادت جارتنا الى مبدئها القديم .. تعتنقه وتثبت عليه بشدة .. رغم أنف صورة الزفاف الخاصة بابنتها والمعلقة فوق رأسى .. ورغم أنف الطفلة التى ارتفع بكاؤها فى هذه اللحظة حتى كاد يخرق سمعى .. ورغم أنف المنطق .. وأنفى أنا أيضا .. بالمرة .. !

كدت أصعق .. ولم أستطع ابتلاع كلامها .. وعلى الرغم من اننى أكره شرب (المغات) الذى يقدمونه للوالدات المهنئات أيضا .. رغم أننى أكرهه جدا الا أننى فكرت فى تكرار المحاولة السابقة فشربت الفنجان كله دفعه واحدة .. لكنه لم يفد هذه المرة .. وظلت كذبتها واقفة فى حلقى لا تريد أن تنبلع .. ولا تزال واقفة فى حلقى حتى الآن .. فأما أن تلحقونى .. أو ماتلحقونيش !

أريد هذا الشاب فورا

مضيت أنهب الأرض بسيارتى فى الطريق الى المستشفى وأنا أطلق زفرة طويلة ، الغريب أننى لم أكن أشعر •• ولو بقدر ضئيل •• من ذلك التعب الذى كنت أرزح تحت وطأته من ساعة واحدة ! •• وكأن كل ذلك الارهاق لم يكن أكثر من ثوب نضوته عنى عندما أردت ذلك ، يا لهذا الانسان •• المخلوق الضعيف •• مع ذلك فليس هناك لقدرة ارادته حدود ! ••

لم يكن تعبى راجعا بالدرجة الأولى لطبيعة عملى المرهقة — رغم أن الحركة كانت فعلا على أشدها بالمستشفى طوال اليوم — لكن أيضا لأحداث الليلة السابقة الرهيبة ، هل وقعت تلك الأحداث حقا أم انها لم تكن أكثر من كابوس مخيف ؟ ! ••

ضحكت فى داخلى من هذا التساؤل فى حين كان الدليل الحى على وقوع تلك الأحداث ماثل بجوارى •• ذلك الشاب • الذى راح فى اغفاءة قصيرة حتى مضى رأسه يلامس كتفى كلما

اهتزت السيارة ، وان كنت معذورة فى ذلك التساؤل •• فأحداث تلك الليلة •• فعلا تكاد لا تصدق ! ••

بدأت الأحداث بذلك الصــوت الذى لا أخطئه أبدا •• لا أدرى ما اذا كان هو الذى أيقظنى أم اننى استيقظت من تلقاء نفسى •• فما كدت أميزه حتى تنبهت كافة حواسى ، ووضعت يدى على فمى أمنع شــهقة •• حتى لا أوقظ طفلتى الراقــدة بجوارى •• هتفت فى داخلى « يا الهى •• هل عاد ذلك الصوت مرة أخرى ؟ ! •• ولمــاذا ؟ » ••

طبعا لم أنسها تماما •• الليالى العديدة التى لازمنى فيها ذلك الصــوت ملازمة لصيقة •• حتى كاد يدمرنى ، أضــع يدى على أذنى •• ثم أضع المخدة فوقهــا لكن بلا فائدة •• فأروح أصرخ فى ســكون الليل •• حتى يسرع الى « منير » زوجى بالاقراص المنومة ، يقولون أن لكل شىء مهما كان بغيضا فوائده •• العقارب والحيات السامة يستخرجون منها الامصال•• كذلك شفتنى تلك الفترة القاسية من أوهامى وظنونى تجــاه « منير » •• فليس غير شخص محب صادق الاخلاص يستطيع تحمل معاناة معالجة زوجة على شفا الانهيار العصبى •• على حد تشخيص الطبيب •

وكيف لا أصاب بذلك الانهيار •• بعد أن رأيت طفلى

الصغير يموت أمامى .. دافعا حياته البريئة ثمنا لتصرفاتى الطائشة ؟ .. نعم كنت أنا السبب .. أنا السبب وعبثا راح « منير يحاول تهدئتى بأن هذه ارادة الله .. وأن تلك الميتة كانت مقدرة له فى ذلك اليوم والساعة والثانية بالذات .. وأن .. وأن . ظللت أردد طوال تلك الأيام كلمة واحدة « ليتنى لم أترك المنزل ! » ..

هل تفعل الغيرة كل ذلك بالانسان ؟ .. تلغى عقله ؟ .. تخرس صوت ضميره ؟ .. تمحو مشاعره ؟ .. تصم أذنيه حتى عن نداء الواجب ؟ كان طفلى خالد مصابا بنزلة برد فى ذلك اليوم .. وكان واجبى — ان لم يكن كأم فكطبيبة — ان ألازمه .. لكن المنظر الذى باغتنى لحظة دخولى الشقة .. لمنير وابنة عمه « صفاء » يتضاحكان فى سعادة وانسجام أطار عقلى. أسرته كلها كانت تهمس بعلاقة حب قديمة ربطت بينهما قبل سفر « منير » الى بعثته .. لكنها تزوجت قبل عودته من الخارج .. ثم طلقت بعد زواجنا بشهور .

طبعا عندما التقيت بمنير وتحاببنا .. لم أعرف بشىء من ذلك .. لكن مع مضى الشهور .. بدأت بعض الكلمات غير المقصودة — أو ربما كانت مقصودة لا أعرف بالضبط — تتطاير فى سماء حياتى .. لتهبط داخل أذنى ، وبدأت أثور على « منير » وأواجهه بشكوكى كلما جمعتنا واياها أحد اللقاءات ، نفى منير

تلك الشائعات بشكل قاطع .. مؤكدا أن علاقتهما كانت للأخوة أقرب منها للحب .. ولو أنها كانت الأخيرة .. لكان حتما أن يخطبها قبل سفره .. فاذا اخطأ هو ولم يفعل فكان حتما أن تنتظره هي وترفض أى خاطب ، لكن كل ذلك لم يقنعني .. وبدأت خلافاتنا تأخذ صورة اشد حدة .. حتى اضطررت أكثر من مرة ان أترك المنزل عقب بعض هذه الخلافات ، ثم كانت المرة الأخيرة .. لم أذهب الى بيت أسرتي كالعادة .. حيث أنه كان يحضر لى ويحاصرني مع امى وشقيقي حتى أعود . كانت ثورتي فى تلك المرة فوق كل حد ، فاتجهت من فورى الى منزل عمتي بالاسكندرية ..

بعد يومين اتصل بها أخي .. ضمن بحثه عني .. قال لها بحدة :

ــ لا .. لا يهمني أن أحدث هذه الطائشة « عفاف » .. فقط بلغيها أن المرض قد اشتد جدا على طفلها خالد .. هذا اذا كانت لاتزال تذكر أن لها طفلا ! .

للوهلة الأولى ظننتها حيلة لاعادتي .. لكن قلبي لم يتحمل فأسرعت الى منزلي .. لأجد خالدا يعاني من حالة ربو حادة ، تطورت حالة البرد عنده بسرعة مذهلة .. عاد « منير » مساء يوم سفرى ليجده نائما على البلاط .. بملابس مبللة .. والخادمة تتفرج على التليفزيون وبدأت أعالجه وقلبي يتمزق .. يومان

وليلتان وأنــا أبذل كافة ما فى وسعى .. وما فى وسع الطب .. لكن حالتــه لم تتحسن .. كان ينظر الى بعينين واســعتين .. نظرات تخيلتها تمتلىء بالعتاب .. وهو يتنفس بذلك الصــوت المتحشرج .. وفى الليلة الثالثة .. صعدت روحه الطاهرة الى بارئها لأسقط أنــا منهارة . كل مســاء .. وفى هــدأة الليل الساكن .. أسمع صــوت تنفس ابنى خالد .. ذلك التنفس المشروخ الذى يميز مريض الربو ، وأحــاول أن أســد أذنى بيدى .. لكن الصــوت يظل يخترمهما .. رتيبــا .. كدقات الساعة .. أو كدقات المعــاول التى تفتت خــلايا جسدى .. وأظــل أذوب .. حتى أفقد أعصــابى .. فتتعــالى صرخاتى ولا أهدأ الا بتناول الاقراص المنومة .

كم ظللت تلك الفترة ؟ .. شهور وشهور .. حتى استطاع العلاج ــ ومعه جرعات مكثفة من حنان « منير » ــ أن ينتشلانى من هذه الحالة .. خاصة وقد بدأت تظهر على بوادر حمل جديد وهكذا جاء هشام .. ثم أشجان .. وأهتم بهما جدا .. وبمنير طبعا .. فى محاولة للتكفير عن خطئى الفظيع فى تلك الفترة التى اتسمت تصرفاتى فيهــا بالطيش والتهور والعصــبية .. لقــد أنضجتنى الأحداث ..

لكنى لم أنس خصمى اللدود .. مرض الربو اللعين .. الذى اختطف منى فــلذة كبــدى .. فانطلقت أحــاربه بدون هوادة بكل قوتى ، رفضت دائما أن أرفع صورة خالد من فوق

« الكومدينو » بجوار سريرى •• وكلما طالعتها كلما ازدادت حميتى •• بل ضراوتى •• فى محاربة عدوى . انشأت قسما خاصا فى المستشفى لعلاج هـذا المرض واستقدمت له أحـدث الأجهزة •• كما رحت ألتهم جميع الأبحاث التى تنشر عنه فى كافة مجلات العالم الطبية •• واطبقها فى قسمى •• بل واقوم ببعض التجارب لتطويرها وادخال المزيد من الفاعلية عليها •• حتى أصبحت حجة فى مرض الربو « ليس فى مصر وحدها •• بل على مستوى الشرق الأوسط كله » •

أكثر من سبعة أعوام مرت على تلك الفترة •• حتى كانت الليلة الماضية •• أويت الى فراشى فى الحادية عشرة •• وجاءت أشجان تنام معى••كما اعتادت منذ سفر والدها الى الاسكندرية فى مهمة ـ من أسابيع ـ مصطحبا معه هشام ، ولا أدرى كم نمت حتى تنبهت على ذلك الصوت المعهود ••• صوت تنفس متحشرج لمريض بالربو •• يفرض نفسه على أسماعى فى سكون الليل •• احتضنت أشجان بلهفـة لكن صـوت تنفسـها كان هادئـا منتظما •• اذن فقد عاد ذلك الصـوت مرة أخرى ولكن •• لمـاذا ؟ ! •• كانت له مسبباته تلك الأيـام •• انمـا هـذه الليلة •• هل عدت أقلق تجاه تصرفات « منير » فى غيابه ؟ •• غير معقول •• لقد امتدت جسور الثقة بينى وبينه فى الأعوام السابقة •• قوية متينة راسخة •

لم أكن على اســتعداد للدخـول فى متاهـات البحث

والاستدلال .. لذلك قمت فورا الى صيدليتى الصغيرة بالحمام .. وأحضرت علبة الاقراص المنومة .. التى لم أقربها طوال السنوات الماضية ، وتمر دقائق بعد ابتلاع القرص ومازال ذلك الصوت يتردد خادشا السكون من حولى .. وتضطرب أعصابى فأتناول جرعة أخرى مضاعفة .. لذلك لم تمض دقائق حتى رحت فى سبات عميق ، لاستيقظ بعد فترة أخرى على أشجان تهزنى وهى تبكى مذعورة .. ثم أسمع رنين الجرس تصحبه دقات شديدة على الباب .. وأبذل جهدا كى أقوم لافتح .. حيث مازالت الاقراص تثقل رأسى .. ذهلت عندما رأيت بعض رجال البوليس يقبضون على شخص يحمل بعض تحفى ومجوهراتى .. وعلمت منهم أنهم لمحوه يخرج من نافذة شقتى .. طبعا حمدت الله أن عادت لى أشيائى .. ولبعضها معزة وذكريات غاليات ..

فى اليوم التالى لم أستطع الذهاب الى القسم للادلاء بأقوالى كما طلبوا منى ألا فى المساء .. حيث اشتد ضغط العمل فى المستشفى طيلة النهار .. وهناك اخبرونى أن اعترافات اللص قد كشفت لهم السر فى دخوله الى شقتى رغم سلامة أقفال جميع الأبواب والنوافذ .. قرب المغرب نزلت الشغالة لتعطى بعض ملابسى للكواء وتركت الباب مواربا .. فدخل واختبأ تحت سرير فى غرفة نومى .. حتى عدت أنا وتعشينا جميعا .. ثم أوينا الى فراشنا .. هتفت :

ـ كل هذه الساعات ولم أشعر به ؟ !

قال الضابط :

ـ المدهش أكثر أنه فتح دولابك وأخذ ما شاء ثم فتح النافذة ليخرج وأيضا لم تحسى به .

ـ كان ذلك لتناولى بعض الاقراص المنومة .

ـ عموما نحمـد الله أنك لم تشـعرى به .. فلم يكن مستبعدا . اذا رآك تهمين بالاسـتغاثة ـ أن يقتلك .. حيث وجدنا معه مطواة من نوع « قرن الغزال » .

عندما عدت الى منزلى كدت ـ من فرط تعبى ـ أن أنـام بثيابى . .لكنى تحاملت وغيرتها .. ثم تمددت على فراشى .. وأنـا لا أكاد أ صدق ان هـذا اليوم الحـافل قد انتهى .. وانتى أخيرا سأنام .. لا أظن انتى كنت فى أية ليلة أخرى أكثر حاجة للنوم منى الليلة .. مع ذلك كنت لا أزال أشعر بالرعب.. همست لنفسى : « يا للسماء .. أكنت نائمة هكذا .. ومعى ابنتى .. وشخص غريب .. لص شرير .. ينام فى نفس غرفتى.. ويتنفس نفس هوائى ؟ ! » ..

عند هذه الكلمة توقفت .. يتنفس ؟ .. اذن كان ذلك التنفس حقيقيا وليس وهما .. وهذا اللص .. يا الهى .. مريض بالربو .. نعم مريض .. ليتنى تنبهت لهذه الحقيقة أثناء تواجدى

فى قسم البوليس •• لكنت أعطيته بعض الأدوية المهدئة لحالته•• فاننى بالطبع ــ وأنــا فى شــدة التعب هكذا ــ لن أستطيع الخروج ثانية لمحاولة علاجه •• أيضــا فان تليفونى معطل •• وحتى لو كان شغالا فلا أظن أن الاتصال برجال الشرطة سيكون مجديا فى أمر كهذا ، بدأت أتسلسل •• انه مريض •• وأنــا طبيبة •• وفى نفس تخصص مرضــه ، لكنى عدت أحاول تهدئة ضــميرى •• « للسجن طبعــا أطبــاء •• بل ومستشفى •• وســيعالجونه » •• صــاح الضــمير : « ومتى تظنــين أنهم سيفعلون ؟ •• ربما ليس قبل أيــام •• عندما تتدهور حالته فيتنبهون لذلك » •• تنهدت فى أسى فرآها ضميرى فرصــة وراح يوالى حصاره لى « أتعرفين أين يضعون المشتبه فيهم ؟ •• على البلاط » •• همست : « مثل خــالد » •• سالت دموعى وأنــا أنظر لصــورة طفلى الراحــل •• بــدأ الدق فى كعبى يشتد •• وقفت عليهما الصباح بطوله •• وجدت الرد الذى أفحم به ضميرى : « هــذا الشاب الذى تطالبنى بترك فراشى وطفلتى كى أعالجه •• جاء الى منزلى يسرقنى •• وقد بيت فى نفسه أن يقتلنى أو يقتل مهجــة قلبى « أشجان » اذا ما تنبهت احدانا لوجوده •• ولولا العناية الالهية التى جعلتنى أظن صوت تنفسه وهما مثل الوهم السابق لكنت حرية ان أبحث عن صاحب الصــوت •• ولكان هو قــد فتك بى •• وطبعــا فى تفاقم

حالته ــ من جراء نومه على أرضية غرفة الحجز ــ جزاء يستحقه ! » ..

مددت يدى وأطفأت النور .. لكن النوم الذى كان يداعبنى وأنا أقود سيارتى فى الطريق لمنزلى .. عصانى ، فرحت انقلب .. لكننى أحسست بالفراش تحتى كما الجمر .. أو الشوك ! فكرت أن أقوم لاحضر الاقراص المنومة لكن ضميرى صرخ فى : « عبثا تفعلين .. فانت طبعا تتخيلين ذلك الشاب يحاول التنفس فلا يستطيع الا بصعوبة » .. رددت بسرعة : « بل اننى أتخيله يأخذ وضع الاستعداد والتأهب فى مكمنه تحت سريرى ــ لحظة ان أوقدت النور لآتى بالأقراص المنومة ــ كى يطعننى اذا ما انحنيت باحثة عنه .. » كف ضميرى عن الصراخ وراح يهمس فى رقة « لم يحو القسم الذى أقسمته يوم تخرجك .. قسم . أبقراط . اله الطب بندا يعفيك من علاج من أراد بك سوءا » .

بعدها صمت صوت ضميرى .. ليخلى الساحة لصوت التنفس المتحشرج .. الذى راح يعلو ويعلو ، رغم الظلام رأيت صورته واضحة أمامى .. خالد .. ينظر الى بعينين واسعتين .. نظرة عتاب .. قال من بين شهقاته وتزييق صدره « الربو اللعين .. فتك بى » .

أوقدت النور وهببت من فراشى ارتدى ملابسى .. لا ..

لن أترك عدوى اللدود ينتصر على أبدا .. فيغافلنى ويستولى على ضحية أخرى .. وأنـا التى لم أمكنه من ذلك قط .. منذ أعلنت عليه حربى المقدسـة ، فى قسم البوليس دهش الضابط النوبتجى لمرآى ؟

ـ أى خدمة يا دكتورة عفاف ؟

ـ نعم .. اذا سمحت .. أريد هذا الشاب .. فورا .

لم تكن اجراءات نقل اللص الشاب الى قسمى بالمستشفى سهلة .. لكننى تذرعت بالصبر والاصرار حتى تم لى ذلك . لهـذا .. مضـيت أنهب الأرض بسـيارتى فى الطـريق الى المستشفى .. وأنـا أطلق زفرة ارتياح طويلة .. الغريب اننى لم أكن أشعر ولو بقدر ضئيل .. من ذلك التعب الذى كنت أرزح تحت وطأته من ساعة واحدة !

لحظة غاب فيها العقل

فى لحظة واحدة ضاع منى كل شىء .. أو على الأصح أضعت كل شىء ! ، غابت شمس دنياى وكتب على بعد ذلك أن أعيش مقرورا .. انطفأت الشمعة التى أضاءت طريقى فلا مفر من تكملة الرحلة فى ظلام دامس .. تبددت النسمة التى لطفت حياتى فويل لى مما ينتظرنى من هجير .. فقدت اقبال وكانت لى كل ذلك .

كان هـذا بسبب لحظة ضعفت فيها .. لحظة خرس فيها صوت العقل .. أو انسحب كلية .. مخليا الأثير كله من حولنا لصوت الشيطان فمضى يقهقه ويعربد ، اننى حتى الآن مازلت أردد لنفسى مذهولا « كيف حدث هـذا ؟ ! ولم ؟ ! » مازلت غير مصدق أن ما كان قد كان فعلا .. بل أحيانا يخيل الى أن ذلك لا يعدو كابوسـا رهيبـا ، لكن واأسـفاه .. ليته كان كذلك .. لكنت حمدت الله — وأنـا أطلق زفرة حارة مصحوبة بتلاوة الشهادتين — فور استيقاظى منه ..

هذا الذى حدث فى دقائق معدودة •• كان تجربة رهيبـة أصابت أعماقى وتركت بصماتها داخـلى وخـارجى •• تجربة ستستمر تلقى بظلالها الكئيبة على حياتى طيلة العمر •• أو على الأقل سنوات طويلة •• حتى أنسى حبى المفقود •• وأشك أن أستطيع ذلك ، بل ليست حياتى وحدها •• وحياة اقبال أيضا •• ثم •• هى •• الضـلع الأخير من المثلث المعهود •• ربما فـاق عذابها عذابينا معا •

لن أنسى أبدا وجـه اقبـال وقد ارتسست عليـه الحيرة والذهول •• وعذاب الدنيا بأكملهـا •• عندما جاءت تلتمس تفسيرا لموقفى ، كنت قد خططت ان أختفى من حياتها دون أن اضطر لهذه المواجهة •• لذلك تركت منزل خالى الذى كنت أقيم لديه منذ قدومى القاهرة •• أيضا انقطعت عن الذهـاب الى الشركة بعد أن طلبت نقلى الى الفرع الجديد بالمنصورة •• مسقط رأسى ، لكن كان لابد من التوقيع على اخلاء طرفى •• دخلت مكتبى وأنا اتلصص •• محاذرا أن يرانى أحد •• لكنى فوجئت بها تدخل على ولم تكد تمر دقائق ! •• لابد كانت قد أوصت الجميع بابلاغها عند قدومى •• قالت من بين الدموع التى أغرقت وجهها :

ـ هو سؤال واحد •• هل فعلا أنت الذى كتبت لى ذلك الخطاب تنهى فيه ما كان بيننا ؟

أطرقت للأرض فعرفت الجواب .. صرخت :

ـ معقول ؟ ! .. وأين ذهب كل ذلك الحب الذى لم تتوان يوما عن تقديم الأدلة لى عليه ؟ ! .. أين وعودك وعهودك ؟ ..

ـ الأمر يرجع أولا وأخيرا للنصيب ..

ـ لكن لماذا ؟ .. لماذا ؟ ! .. ـ كان ذلك لصالحك .. صدقينى ..

عاد الأمل يخايلها من جديد :

ـ لصالحى .. لصالحى ؟ .. من أجل ذلك قلت لك ان من حقى أن أعرف السبب .. فربما كنت تضحى تضحية أرفضها .. بالله عليك صارحنى يا فؤاد .. هل أنت مريض ؟ .. هل تنقصك المادة ؟ .. حبى لك يجعل فى استطاعتى أن أنتظرك حتى تشفى .. وحتى تجد المال الذى يلزمك .. بل وحتى آخر العمر .

كدت أندفع اليها لآخذها بين ذراعى .. لولا تلك الصورة التى انطبعت أمامى على أرضية الغرفة .. لجسدى رجل وامرأة يلتصقان حتى ليكادا يصبحان جسدا واحدا .. كانت الصورة من الوضوح لدرجة أن تراجعت وقد خيل الى اننى سأصطدم بهما ! ، قلت بخشونة :

ــ عبثا تحاولين •• تضيعين وقتك ووقتى •• أما السبب فاعفينى من ذكره •• ولو ألححت فسأضطر أن أكذب عليــك وهذا ما لا أريده ••

أحسست أنها قد جرحت •• فانتفضت متجهة الى البــاب والدموع تنهمر من عينيها •• رغم آلامى الهائلة ابتسمت بمرارة وأنــا أذكر أول لقاء لى معهــا •• يشبه آخر لقاء من وجوه عديــدة •• نفس الشركة •• نفس غرفــة مكتبى •• ونفس الدموع !! ••

عقب صدور حركة الترقيــات والتنقلات بالشركة جاءتنى باكيــة :

ــ قيل لى انك أنت الذى رفع اسمى من كشف المنقولين الى فرع الشركة بالاسكندرية ••

ــ فعلا •• بالاطلاع على ملفك عرفت انك تقيمين هنــا بالقاهرة مع أسرتك •• فوجدت أنه لا يليق أن تنقل آنســة صغيرة مثلك الى بلد ••

قاطعتنى صارخة : ــ كنت سأقيم عند خالتى هناك •• ثم ما شأنك أنت •• لقد كان النقل بناء على طلبى ••

تمتمت بذهــول : ــ معقول ؟ لكنى حقيقــة لم أعــلم بذلك •• ولكن •• لمــاذا ؟ •• هل تهربين من شىء ؟ •• أقصد

هل يوجد ما يضايقك هنا ؟

ردت بتهكم : أعتقد أن أحـدا لايمـكن أن يهرب من السعادة والهناء ؟

ـ فماذا يضايقك ؟ ..

ـ هذا أمر يخصني وحدي .

ـ ربما استطعت مساعدتك .

غمغمت : ـ ليس في استطاعة أحد مساعدتي قط ..

لا أدري لمـاذا اهتممت بها بعد ذلك .. زعمت لنفسي انني تسببت في حرمانهـا من أمنيـة ترغبهـا .. لذلك وجب على مراعاتها .. وقد فعلت أكثر من مرة ، استدعيتها لاعتـذر لها ثم كررت الاعتـذار .. ثم كي أعـدها بأنني في أقرب فرصـة سأحقق لها رغبتها .. ضحكت برقة وهي تؤكد لي أنها كانت رغبة عابرة وأنها لم تعد مصممة عليها بعد .

كان المفروض أن ينتهي الأمر عند هـذا الحد .. لكني وجدت نفسي دائما أبحث عنها .. أذهب الى مطعم الشركة في نفس موعدها .. والنادي في الأيام التي أعرف أنها تذهب اليه فيها .. لأجد نفسي آخر الأمر لا أستطيع عنها بعدا .. فكانت المصارحة بنبض قلبي .. الذي وجد صـداه في قلبها ..

لم تمر شهور على مولد حبنا حتى كنت أحدثها في أمر

زواجنا لتكاد أن تطير من فرط السعادة ، لكن الذى أدهشنى أنها ـ رغم ترحيبها البالغ ـ ظلت لفترة طويلة تراوغنى وتؤجل ذهابى لأسرتها كى أطلبها رسميا ، وفى كل مرة كان السبب واحدا « حتى تتأكد من مشاعرك نجاهى •• ! » فى أول الأمر كنت أضحك :

ـ وبديهى أننى لم أحدثك فى هذا الموضـــوع الا بعد أن استوثقت تماما ••

حتى جاء الوقت الذى أصبحت فيه هذه الحجة تضجرنى•• صحت :

ـ لست طفلا حتى لا أستطيع أن أعرف بالضبط حقيقة عواطفى •• أو مراهقا حتى أندفع بلا ترو ••

أخذت بثورتى فقالت وهى تطرق برأسها :

ـ الحقيقة حتى أتأكد أنـا •• من قوة حبك لى ! ••

ـ والا يكفى ذهابى لطلب يدك دليلا ؟ حسنا •• سأحضر لزيارتكم الخميس القادم •

لكنى فوجئت بها تطلب مقابلتى قبل الموعد بيوم واحد •• كانت مضطربة بعض الشىء •• سألتنى :

ـ هل ستحضر غدا لمقابلة والدتى ؟ ••

ـ طبعا •• كما اتفقنا •• هل جد فى الأمر شىء ؟ ••

ـ اطلاقا •• فقط هنـاك تمهيد لابد منه قبل أن تقابل أمى ! ••

ـ لمـاذا ؟

ـ لانها •• لانها ••

بدأت أقلق •• قلت استحثها ••

ـ لانها ماذا ؟

ـ لانها جميلة ! ••

بهت لحظة •• ثم انطلقت أقهقه :

ـ نعم ؟؟ !!

ـ لا تستهين بالأمر •• ليست جميـلة بالدرجـة التى تظنها •• يعنى أنها مقبولة •• انها جميلة بدرجة صاعقة ، تذكر طبعا بداية تعارفنا •• وكنت أود الانتقال الى الاسكندرية ضيقا من شىء هنا •• انه جمال أمى الرائع ! •• الذى يضعنى معها دائما فى مقارنة أخرج منها خاسرة •• جدا ، فالفرق بين جمالها الفائق وجمالى المتواضـع رهيب •• ما من مرة ضمنا مجلس الا وصرت بجانبها صفرا على شمالها ! •• ما من زميل بالكليـة جاء لزيارتى واسـتطاع ان يحول وجهه عنها بل حتى الزميلات، وكأن بوجهها مغناطيسا يجذب اليه كل الموجودين •

كل ما قالته لم يقنعني بأن ذلك يمكن ان يسبب أى مشكلة .. لكنى اضطررت أن ادارى استخفافى لما رأيت جديتها .. ربت يدها مطمئنا :

ــ حبى لك يجعلنى لا أرى فى الدنيا سواك ..

لا أدرى ماذا كان يمكن أن يبدو على ملامحى لحظة لقائى الأول بمدام سناء .. لو لم تعطنى تلك الخلفية .. أو الانطباع المسبق .. أو التمهيد للصدمة .. حسب تعبيرها .. اذا كنت رغم كل ذلك قد فتحت فمى مذهولا أمام جمالها الفتان .. الذى لم أر مثيلا له من قبل .. راحت عيناى تختلجان وأنا أحاول أن أدارى انبهارى حيث كنت متأكدا ان اقبال تضعنى فى تلك اللحظة .. تحت ميكروسكوب الفحص الدقيق .. لترى رد فعلى ..

لكن الأمر لدى لم يزد عن مفاجأة اللقاء الأول .. على العكس .. كانت خطبتى لاقبال سببا لشفائها من عقدتها القديمة « أمى أجمل منى » .. لم يعد يحز فى نفسها أن يلتف جميع الحاضرين فى أى مكان حول أمها كما تتهافت الفراشات حول الضوء .. مادمت أنا لا أهتم الا بها ولا أولى عنايتى والتفاتى وحديثى الا لها ، كنت أحبها حبا حقيقيا .. صادقا .. ملأ على كل قلبى ووجدانى .. حتى بت أشعر بأن الدقيقة الواحدة

بصحبتها تســاوى دهرا بأكمله مع أى شخص آخر •• حتى أمها •• ملكة الجمال السابقة •• كما علمت فيما بعد ••

وتمر الشهور •• شهور الخطبة السعيدة •• لا يعكرها سوى شيء واحد . مع مداومة البحث والتنقيب •• ودق كل الأبواب •• لم أجد الشقة التى ستجمع شملنا وتحقق آملينا •• بل حتى لم يكن يبدو فى الأفق ما يمكن أن نشعر معه أن هــذا الحلم سيتحقق فى وقت قريب ••

وجاء اليوم المنحوس •• مررت على اقبال فى مكتبهــا عند خروجى كى أصحبها لمنزلها •• لكنها اعتذرت بأن لديهــا عملا سيستغرق منها بضــع ساعات •• أردفت بأسف :

ـ وكان الأستاذ فاضل لم يختر ســوى اليوم ليكلفنى بهذا العمل •• فى حين كنت أود أن أكون بجوار أمى الآن •• حيث لمست من صــوتها المختنق بالبــكاء •• مدى صــدمتها لرسوب أخى هانى . ولا أدرى لمــاذا كل ذلك •• وكان رسوبه هذا نهاية العالم ! ••

وكان الأمر الطبيعى أن أعدها أنــا بالذهاب الى أمهــا كى أطيب خاطرها . فعلا لم تبالغ اقبال . وجدت الأم فى حالة انهيار كامل •• كانت تبكى وتشهق وجسدها كله يهتز مع شعرها المسترسل •• قلت باستنكار :

ـ غير معقول هـذا الذى تفعلينـه •• من يدرى •• ربما كان رسوبه هـذا درسا له •• وفي العام القادم ••

قاطعتنى : ـ العام القادم ؟ ترى كم عاما فى العمر يضيعها هانى على نفسه •• وعلى أيضا •• طبعا تندهش •• فلا أحد يحس بى •• وكأنه مفروض على الأم أن تلغى مشاعرها ورغباتها الخاصة لتذوب وتتلاشى فى أولادها •• لا •• أنـا انسانة •• ولى أحاسيس ، وربما لو عشت مع زوجى المرحوم حياة سعيدة لاكتفيت بما مضى من عمـرى •• لكنـه كان يكبرنى بعشرين عاما •• حتى أننى كنت له ممرضـة •• أكثر منى زوجـة ، ثم لم أقبل الزواج بعد وفاته كى لا أحرم اقبال وهانى من حنان الأم بعد فقدهما رعاية الأب ، وكنت دائما أصبر نفسى بأنهـا رسالة أؤديها •• الى أن تتزوج اقبال ويتخرج هانى حتى أعيش أنـا حياتى •• مع شخص يحيطنى بحبه وحنانه •• ويملأ على دنياى •• أننى بشر •• لحم ودم •• ولست آلة ، ترى هـل كتب على الى الأبد أن أعيش فى ذلك الخواء والجدب ؟ ••

وكنت خلال حديثها الدامع أحاول قدر جهدى أن أخفف عنها •• قبلت خديها •• رحت أربت كتفيها ، فجـأة حدث شىء شاذ •• خـارق •• لا يصـدق •• وجدت ربتـات أصابعى البنوية •• تتحول الى قبضات حيوانية •• حتى كدت اعتصرها

بين ذراعى .. وقبلات المواساة تنقلب لقبلات شهوة حارقة لم تترك مكانا فى جسدها دون ان تكويه ..

لا .. أقسم أننى — رغم جمالها الصارخ — لم أنظر اليها يوما نظرة اشتهاء .. طول الشهور التى انصرمت على خطيبا لابنتها .. حتى فى قرارة أعماقى .. أو عقلى الباطن .. او فى الأحلام .. على العكس .. كانت دائما بالنسبة لى أما .. أو أختا كبرى ، هى أيضا .. أشهد أنها أبدا لم تحاول اغرائى أو استعراض مفاتنها أمامى .. عاملتنى بصورة طبق الأصل لمعاملتها لهانى ، فما الذى حدث عصر ذلك اليوم ؟ .. أغلب الظن أنه فى لحظة خاطفة .. تفجر حرمانها الطويل .. الى جانب احساسها باليأس .. ليفجر بدوره حرمانى أنا الآخر تلك الشهور العديدة فى انتظار الشقة .. ذلك الانتظار الذى لم يكن يبدو له من نهاية قط .. فاندفعنا كلينا كما يندفع الحديد الممغنط .. لا فكاك له ولا مهرب ولا ارادة .

كما يقولون راحت السكرة وجاءت الفكرة .. لم يكن معقولا بعد .. أن أتمم زواجى من اقبال .. وبطبيعة الحال لم أكن لأفكر اطلاقا فى تحويل ذلك الحادث العارض مع أمها الى علاقة مستمرة .. الحل الأمثل بل الوحيد — ان أقطع علاقاتى بالاثنتين .. كلتيهما ، وكم وددت لو استطعت الانسحاب من حياتهما دون مواجهة .. لكن اقبال صممت على أن تقابلنى

لتعرف السبب •• بيد انني لم أرد عليها •• لجأت الى أعساقى وأغلقت الباب خلفى حتى لا يلحق بى أحد •• كنت قد قطعت على نفسى عهدا الا يعرف السر سوى ثلاثتنا •• أنا وهى والله•

عندما رأت تصميمى على عدم الكلام قامت متجهة الى الباب •• قبل أن تبلغه توقفت •• واستدارت تجابهنى •• بدت كأنها تريد أن تقول شيئا •• لكنها عادت وعدلت •• خرجت لا تلوى على شىء •• وأحسست كأن روحى تنسحب من جسدى لتلحق بها • لكن كان يجب أن أتماسك ولو مرة •• فاذا لم أستطع هذا فى لقائى الأخير مع الأم •• فعلى الأقل ينبغى أن يحدث ذلك التماسك فى لقائى الأخير مع الابنة •• اقبال •• حبيبتى الوحيدة ! ••

الحب يأتى غــدا ..

تعرضت لصدمات عديدة .. لكن صــدمة الساعة فاقت كل ما عداها .. حتى أنها ألجمتها تماما .. تلفتت بدهشة .. هل هــذا صوت جرس أم صــوت والدها .. ؟ لكن هل يكون صوت والدها مجلجلا هكذا ؟ .. يكاد يصــل الى السماء .. رغم ذلك كانت الكلمــات واضحــة .. كل الوضــوح .. « يا ابنتى .. الحب شىء .. والحيــاة شىء آخر ! » ، لكن والدها مريض فى منزله .. فكيف يتأتى أن تسمع صــوته دون وجوده ؟ .. ليس صوت والدها .. ولا صوت أى انسان .. انه صليل جرس .. فى الغالب ؟ .. كاد يصيبها الدوار .. حتى مد الضيف القادم ذراعه كى يســندها .. لكنهــا رفضتها .. وجلست على أقرب كرسى وصوت والدها مازال يرن فى أذنيها : « يا ابنتى .. الحب شىء .. والحياة شىء آخر » . غريب أن تظل هــذه الكلمــات بنصها عالقة بذاكرتها رغم أنه قالها منذ عشرات السنين .. لا .. لا .. بل قالها أمس فقط .. لا ..

لا .. ليس أمس .. ما هـذا ؟ هـل فقدت حتى احساسـها بالزمن ؟ . ألا تستطيع أن تركز قليلا ؟ .. نعم نعم . لقد قـال هذه الجملة قبل زواجها .. اذن بالضبط من حوالى عام ونصف عـام ..

كان للحياة أيامها شكل آخر .. ولون آخر .. بل وطعم آخر .. امضت أجمل أيام حياتها وهى تعيش قصـة حبهـا الوحيد .. الأول والأخـير .. مع ممدوح .. زميلها بالسـنة الأولى بكلية الحقوق نعم زميلها رغم سخرية والدها :

ـ كيف تقولين عنـه زميلك وهو منتسـب فقط ؟ انتى لادهش أين ومتى ترينه بينما هو غائب طيلة ساعات المحـاضرات الصباحية فى عمله الكتابى بوزارة العدل ؟ !

فعلا لم تكن تراه الا قليلا .. فى المكتبـة او حفـلات النشاط بالكلية .. لكن الحب يستطيع دائما ان يتغلب على كل شىء .. كل العقبات .. بما فى ذلك البعاد .. انه دائما معها .. فى خاطرها .. طيفه يملأ بصرها .. وصـوته يملأ سمعها وحبه يملأ فؤادها ! .. ويجدها والدها فرصة :

ـ ألم أقـل لك انك مازلت طفـلة تعيش فى الأحـلام والاوهام ؟ .. هذا الموظف بشهادته المتوسطة .. كم مرتبه ؟ ..

ـ لكن النقود هى آخر شىء آفكر فيه يا أبى ..

ـ هذا فقط عندما نعيش فى قصص الحب .. أما عندما تتزوجين .. فالمـال هو عدتك فى الحياة .. تماما كسـلاح الجنـدى فى الحرب أو كتب الطالب وأدواته فى مدرسـته ، خبرينى .. هل ستضعين الحب أمامك على المـائدة وتتناولينه بالهناء والشفاء ؟ .. بل دعينا من الطعـام فبامكانك الادعـاء بانك ستستمتعين بالخبز « حافا » ويكفيك الحب له أداما .. لكن باقى متطلبات الحياة .. هل ستسحبين من رصيدك فى قلبه لتدفعى ايجـار البيت أو النور أو المواصـلات .. أو الطبيب أو الصيدلية .. أو .. أو .. الخ ؟

ـ تعلم انه منتسب الى كلية الحقوق وما عمله الصـغير هذا الا شيء مؤقت ..

ـ أى أن أمامه سنوات من الكفاح والمعاناة .. هـذا قدره وعليه أن يتحمله .. أنت ما ذنبك ؟ .. ما الذى يضطرك أن تشاركيه معاناته وأمامك من يستطيع من اليوم أن يهيىء لك حياة رغدة دون معاناة سنوات الكفاح العجاف ؟ .

ـ لكن المعاناة ستنقلب الى سعادة ومتعة مادمت بجانب شخص أحبه ..

واحتد : عدنا للهذيان .. لسيرة الحب .. ألم تسمعى بتلك الاسطورة القديمة التى تحكى أن اله الحب يوما تشاجر مع اله الجنون .. وحمت المشـاجرة حتى فقـأ اله الجنون عينى اله

الحب .. ومن ثم حكم عليه رب الأرباب بأن يقوده طوال عمره، وهكذا .. ومن يومها أصبح الحب أعمى يقوده مجنون ! وطبعا فان من يتبعه يكون أكثر عمى وجنونا .. حسنا .. أين ستعيشان أيها العصفوران المحبان ؟ . فى عش فوق شجرة باسقة مورقة ؟ تعرفين جيدا أزمة الشقق .. هل يملك ممدوح هـذا بضعة آلاف من الجنيهات كى يحصل على شقة ؟ .. أم يأخذك لتعيشى مع أسرته فى مسكنها المتواضع .. بذلك الحى الشعبى القذر .. المزدحم الصاخب ؟ .. أفبقى لنفسك .. بعد بضعة أشهر ـ لو عشت هناك ـ سننقلك الى مصحة للامراض العصبية ! .

وبدأ صوتها واهنا :

ـ نستطيع أن ننتظر ..

وانتهز أبوها فرصة اهتزازها واستمر يدق .. على مقاومتها :

ـ تنتظرين ماذا ؟ ! مشاريع الانفتاح والجمعيات التعاونية التى تتحدث عنها الجرائد ؟ .. دور بالقرعة فى مساكن الحكومة الشعبية ؟ .. ستصبحين عانسا قبل أن يتحقق هـذا أو ذاك .. أما عصمت فان شقته جاهزة .. شقة أنيقة .. فى حى راق ..

قالت باستنكار :

ــ لكنى لم أحب « عصمت » هــذا .. فهل تراك تنكر أهمية الحب بين الزوجين .. أى زوجين ؟ ! .. أم لعلك لا تعترف بوجوده على الاطــلاق ؟ !

رد بحماس : من قال هذا ؟ ! من ينكر الحب ينكر كل شيء جميل ومضيء فى حياتنا .. لكنه يكون أروع وأكمل لو تلازمت فيه نبضــات العقل مع خفقات القلب .. وغدا عندما تتزوجين « عصمت » .. ستنبت حولكمــا ــ لتظللكمــا ــ أغصــان الحب .. ويعطر الجو حولكما أريجه .. سيأتى الحب حتما بحسن المعاشرة وطيبها .. والمودة والرحمة التى جعلها الله رباطا بين الأزواج .

هزت رأسها بذهول :

ــ لقد توقعت أن « ممدوح » سـيروقك بعد أن تعرف كفاحه الجــاد ومثابرته من أجل مستقبل أفضل .

ــ لكل سوق الميزان الذى تستعمله وتتعامل به .. وهذه الصفات ممتازة عندما يقيم ممدوح كموظف .. أو كانسان .. أما فى سوق الزواج فهناك قيم ومعايير أخرى مختلفة .

بكت : اذن الزواج فى نظرك ماديات فقط يا أبى ؟

ــ بل ومعنويات أيضا ، وأنــا لم أفضــل « عصمت »

لثرائه فقط .. بل أيضا لأنه من أسرة كريمة عريقة لها اسمها ومكانتها .. ولاخلاقه الرفيعة .

قاطعته بدهشة : اننا لا نعرفه معرفة شخصية .. فمن أين أتتك هذه الثقة بأخلاقه ؟ أليس محتملا أن يفوقه ممدوح من هذه الناحية ؟ .

هتف : غير معقول .. الميسورون دائما يتحلون بأخلاق عالية !!

واعترضت : من قال هذا يا أبي ؟ !

ضحك ساخرا : طبعا الأفلام المصرية تقول عكس ذلك .. لكن خذيها قاعدة .. الأغنياء غالبا أحسن خلقا .. فالفقير دائما يشعر بالمرارة والسخط والحقد على الأغنياء والمجتمع .. وكل شيء .. هذا الحقد ينخر في نفسه ويشوهها .. يجعله أنانيا يكيد لغيره .. كما أنه أكثر تعرضا للانحراف نحو الطريق الملتوية والأساليب المشبوهة تحت ضغط حاجته وحقده .. أما الميسور فان نفسيته عموما تكون مرتاحة وعينه مليئة وتربيته عالية ..

كلام أبيها هزتصميمها بعض الشيء ، لكنه لم يقنعها تماما ، الا أنها فوجئت بممدوح نفسه يعتذر اليها ..

ــ والدك على حق .. الحب تضحية وليس أنانية .. والمحب اذا لم يستطع أن يرفع محبوبته .. فلا أقل من أن يحافظ على بقائها في نفس مستواها .. أما أن يهبط بها باسم الحب

فذلك ما لا أرضـاه .. لقد أفهمنى ما كان ينبغى أن أفهمه وحدى .. لكن الحب أغشى عينى فعذرا ، أمامى ثلاثة أعوام فى الكلية .. وبعدها ربما عامان آخران أحتى أصبح أهلا لمثلك ، المفروض أن يكافح الشاب وحده حتى يكون مستقبله ثم يتقدم جاهزا .. نعم والدك على حق تماما ولا أستطيع أن ألومه اذا ما اهتم بمستقبل ابنته .

حاولت أن تعترض لكن رده كان قاطعا ، هكذا يا أبى ؟ .. فعلتها وحدثته ؟ .. من يدرى كيف كانت طريقتك فى الحديث ؟ ربما كانت مهينة .. ربما لم ينسحب ممدوح لاقتناعه برأيك وانما لاحساسه بالجرح العميق .. اعتزازا منه بكرامته ..

وتزوجت « عصمت » .. الثرى .. الذى بلغ سن الرشد ــ وبالتالى رفعت عنه الوصاية ــ وشيكا ــ وكم كانت سعادة والدها وهو يراه ينفق بغير حساب .. دون أن يعلم أنه يكاد يجهز على ميراثه المدخر بأكمله .. فليت الانفاق كان على امتاع نفسه وعروسه فقط .. ولكن على الخمر والقمار أيضا .. طبعا اذا لم تكن حنان تعلم شيئا عن القمار فانها لايمكن أن تجهل أدمانه الخمر .. ورائحتها تفوح من فمه عند عودته كل ليلة .. أو على الأصح فجر كل يوم ، لكنها لم تتكلم .. لا تهتم .. بأى شىء .. أو أى أحد .. قطعت كافة الجسور الموصلة بينها وبين الناس .. لجأت الى أعماقها

وأغلقت الباب خلفها حتى لا يلحق بها أحد ، منذ ضغط عليها والدها لتتزوج من عصمت أحست وكأنها فقدت كل مقومات انسانيتها .. انها أصبحت آلة .. والآلة لا تعترض .

حتى عندما صحبها في رحلة سياحية الى فرنسا .. وأخذ والدها يحدثها سعيدا عن بعد نظره فى اختيار زوجها :

ـ هل كان « أحد آخر » .. لا يملك سوى مرتبه بقادر على أن يسعدك كل هذه السعادة ويهنيك كل هذا الهناء .. أن يأخذك الى أروع بلاد الدنيا لتشاهدى الجمال الذى ليس له مثيل ؟

حتى عندما قال لها هذا اكتفت بأن هزت رأسها بطريقة ليس لها أى معنى .. لم تقل له انها لم تر من هذه التى يقول عنها أروع بلاد العالم سوى الشارع الذى يقع فيه فندقها ! . وان كل الهناء الذى رأته هناك هو عملها ممرضة لزوجها .. حيث يظل طوال النهار يتقيأ وهى تخدمه وتقدم له المسكنات .. ثم اذا به عندما يحل المساء يقوم كالجن ، فيرتدى ملابسه ويخرج .. وحده ، لم يصحبها معه مرة واحد ، وكيف كان يمكن أن يأخذها وسهراته لم تخرج عن نادى القمار كل ليلة ؟ ، لم تقل له انه كان قد أتى ـ من قبل سفرهما بزمن ـ على كل ثروته واستدان ، وان هذه الرحلة « المتعة » بأكملها كانت

بالديون .. ديون طائلة غرق فيهـا حتى أذنيـه .. ولم تقل له ــ بالتالى ــ أنها قد وقعت معه كضـامنة على بعض هـذه الديون ، وماذا عساها تخشى وهو ابن الأصول وسليل العائلات الكريمة .. ذات الاخلاق .. كما سبق وآكد لها والدها بنفسه ، واذن لايسـكن أن يتوقع منه أحد ان يتصرف تصرفـا يسىء اليهـا .

لمـاذا لم تقل لوالدها شيئا من ذلك ؟ . هل كانت تخشى ايلامه والتنغيص عليه ؟ .. هل هو عدم اهتمام بالرد على حديثه طالمـا لم تعد هنـاك جدوى من وراء المجادلة ؟ .. آم هل كانت تستمتع بالتعاسـة والعذاب يقع عليها كنوع من التكفير عن خطـأ ارتكبتـه ولم تشـعر بمدى فداحتـه الا مؤخـرا ؟ .. استسلامهـا لرأى والدها فى ترجيحه كفـة الشقة على كفـة الانسان ! .. نعم عرفت خطأها بعد فوات الأوان .. كان يجب أن تقاوم .. أن تحارب فى سبيل الانتصـار لحبها .. آن تصمم على اختيار طريق الكفـاح والمعاناة مادامت تشـارك فيه من تحب .. أدركت كل ذلك .. ورحبت بتجرع كئوس الشقاء التى يقدمهـا اليها عصست كل يوم كثمن يجب أن تدفعـه .. أو كعقاب تستحقه على غلطتها .. أو بالأصح جريمتها .. فى حق نفسها وحق حبيبها .. وحق الحب كله !

رغم سـكوتها وعدم شـكواها لأبيها عن أى شىء ..

اضطرت أن تخبره عندما مر يومان ولم يعد زوجها الى المنزل ..
وهو المنتظم دائما فى العودة كل فجر والبقاء فى المنزل حتى
المساء .. لم يخل بهذه المواعيد يوما ، فلما مضى اليوم الأول
على غيابه .. لم تهتم .. كعادتها .. لكنها اضطرت أن تخبر
والدها عندما لم يحضر فى اليوم الثانى أيضا ، وبحث الوالد
وسأل .. أسرته وأصدقاءه .. لكنه لم يعثر له على أثر .. كأنه
تبخر تماما .. وبدأ يقلق عليه حتى جاءهم الرد والايضاح فى
شكل انذار بالحجز على أثاث شقة حنان وفاء لديون عصمت
التى لم يسددها بعد .. ضامنة متضامنة معه .. !

لم تهز هذه الصدمة « حنان » كثيرا .. كدأبها .. لكنها
كادت تزلزل والدها .. أثاث حنان يباع بالمزاد ؟ ! ذلك الأثاث
الذى أنفق فيه آخر قرش يملكه حتى يكون مناسبا لابن الأسرة
الكريمة .. وهو .. ابن الأسرة الكريمة .. التى نسب اليها
كل الاخلاق الرفيعة .. ونزهها عن كل نقيصة .. عصمت ..
يفعل هذا ؟؟ !

انه لم يعد يملك ــ بعد أن جهزها ذلك الجهاز الفخم ــ
ما يسد به هذه الديون .. أو حتى جزءا منها ، ولف ودار على
أصدقائه ومعارفه .. لكن أحدا لم يستطع أن يفعل له شيئا ،
وأقارب عصمت .. أفراد أسرته الكريمة .. تملصوا جميعا ..

لم يحاول أى فرد منهم أن يمد له يد العون •• متعللين بمختلف الاعـذار •

وتقرر موعد الكارثة ، قبلها بأيام •• جاء والدها يزورها •• وأخذ يجوس خـلال حجرات الشقة وكأنه يودع الاثاث الفاخر الذى انتقى كل قطعة منه بعناية ••والذى دفع فيه دم قلبه •• وعندما عاد الى منزله •• رقد مريضا فى سريره •• لذلك كانت وحـدها فى اليوم المشـهود ، وجاءت الشـغالة تخبرهـا أن الباشمحضر ينتظرها فى الصالون لتوقع له على بعض الأوراق ، وكانت الصدمة التى فاقت كل ما سبقها من صـدمات •• حتى انها ألجمتها تماما ، لم يكن المحضر سـوى •• ممـدوح •• الذى كانت صدمته أشد ، وعندما رأت هى ذهوله وارتباكه •• تمنت لو أن الأرض انشقت وابتلعتها فى جوفها ••

واعتذر •• وأقسم •• أنه لم يكن يعلم •• والا لتنحى وأرسل زميلا له ، وكان صادقا ، •• فاصفرار وجهه ورعشـة يديه كانتا تؤكدان ذلك ، وحاولت التظاهر بالكبرياء •• قالت :

— أنت أو أى زميل آخر لا يهم ! ••

لكنهـا لم تستطع أن تتماسـك أكثر من ذلك •• بدأت الأرض تميد بها •• وازداد دوارها عندما بدأ « الدلال » يدق جرسـه •• الذى صك سمعها وكأنه صـوت والدها يجلجل مرددا جملتـه الخـالدة •• يا ابنتى الحب شىء •• والحيـاة شىء آخر ! ••

لقـــاء

الموسيقى تصدح .. لكن دقات قلبى تعلو على صـــوت الموسيقى ، الأضواء تتلألأ .. لكن عينى تلمعان بنظرات أكثر تلألؤا ، الراقصـــة تتمايل .. لكن أعطـــافى تهتز وتتمايل أكثر طربا ، كل ذلك لاحساسى أنه موجود فى نفس الشقة .. وأننى أتنفس ذات الهواء الذى يتنفسه ! ..

بعد قليل سيقع حدث هام . فذ .. سعيد ، سألتقى به .. بعد غياب أكثر من عشرة أعوام ، الله وحده يعلم ماذا تكون نتيجة هذا اللقـــاء .. فى عالم الكيمياء تنتج أشـــياء وأشياء بسبب التقاء مادتين تتفاعلان .. وفى الكهرباء يتم انفجـــار قنبلة عند التقاء سلكين .. ترى ماذا سيحدث عندما التقى أنـــا وعلاء ؟ .

عندى ارهاصات أنه ستقع أمور خطيرة .. مصيرية .. والا .. فلماذا رتب القدر كل تلك الملابسات ؟ .. لمـــاذا شقيقته تتزوج بعد عودته من الخـــارج بأسبوعين فقط ؟ .. ولمـــاذا

زوجى يسافر هـذا اليوم بالذات فى مهمة ؟ .. لمـاذا ولمـاذا ؟ ، لا أريد أن أشغل عقلى فى ما هية ما سيحدث .. حيث العقل أحيانا يفسد كل شيء .. اذا تركت له الأمر فلربما سيستنكر أن أفكر فى هـدم عشى .. على رأس طفلى ، حبنـا ــ أنـا وعـلاء ــ قوى .. هادر .. كما الشـلال .. الذى يكتسح كل ما فى طريقه .. ولكن .. هل سيكتسح حتى مشاعر أمومتى أم تقف هـذه المشاعر أمامه كصخرة منيعة ؟ ..

لا أريد أن أفكر أو أصل الى نتائج .. المهم أننى سألقاه وكفى ، قلبى مشـوق أليه كظمآن مضى عليـه مليون عام ينتظر جرعة ماء ، أننى الآن فى دهشة .. كيف استطعت أن أعيش بعيدا عنه عشرة أعوام كامـلة .. ولكن .. هل كنت أعيش حقا ؟ .. لا أظن ، منذ أن فرقوا بيننا وأنـا أسير وأتحرك بدون رغبة .. بدون هدف ..

الغريب أن قصة حبنا كانت تسير فى بدايتها بيسر وعذوبة.. لا مشاكل .. لا عقبات .. لا أعاصير ، أسرتان متجاورتان جمعت بينهمـا من الوشائج ما يفوق الصـداقة والجـيرة .. وحتى القرابة ، وتحابينا .. وكلما كبرنا كبر الحب فى قلبينا ، جميع زميلاتى دهشن عندما كتبت الرغبة الأولى فى تنسيق الجامعات « كلية الحقوق » .. خبطن كفا على كف .. كيف ذلك وقد حصلت على خمس وثمانين بالمـائة .. وأمامك كليتا الاعـلام

والاقتصاد ؟ ، لكنني كنت أود أن أكون معه طيلة اليوم •• صباحا بالكلية ــ التى التحق بها قبلى بعامين ــ وبعد الظهر فى المنزل •• مع الأسرتين •• دائما ســويا فى شقتنا أو شقتهم ، حتى عندما نسافر الى المصيف •• نستأجر شقتين متجاورتين •• ونضحك ونحن نستمع الى فيروز تغنى : « حبيتك بالصيف •• حبيتك بالشتا » •• انها تتكلم بلساننا !

وباركت الأسرتان حبنا ، ليلبسنى عــلاء الشبكة عندما أصبحت فى الليسانس ، هل هناك متحابان يحلمان بطريق أكثر من هــذا تمهيدا •• أو تزينا بالزهور ؟ ، مضينا اذن نتناوب وضــع اللبنات واللمسات لقصر حبنا الشاهق •• وما درينا أننا انما على الرمال نبنى ونعلى •• وان موجة واحدة كفيلة بهدم كل ما بنينا •• وقد كان •• رغم أن الموجة هــذه لم تكن شيئا رهيبا عاتيا •• مجرد ســوء تفاهم بين رجلى الأسرتين ، لكن العناد والتشبث باذيال الكبرياء من الطرفين أبى الا أن يزيد رقعة الخلاف الى قطيعة كاملة •• ثم تطوع بعض « أبناء الحــلال » بالقاء الزيت على النار حين راحوا ينقلون كلام كل من الطرفين للآخر مبالغا فيه أو محرفا •• بعدها أقسم والدى بأغلظ الايمان أن نجوم الســماء أقرب الى عــلاء منى ، وفشــلت الدموع والوساطات والشفاعات فى اثناء والدى عن قراره •

وعندما التقيت مع عــلاء فى ركننا المفضــل بالنادى ••

فكرنا فى كافة الحلول •• لكنها كلها بدت مستحيلة •• لا سيما بسبب خلو يدنا من المادة •• الأمر الذى أصاب علاء باليأس •• حتى أنه فكر أن ننتحر سويا •• كما فعل روميو وجولييت ! •• وعندما اعترضت لتمسكى بدينى •• قال انه هو سيفعل •• خاصة وهو يحس أن حياته بدونى هى والموت سواء •• بل الموت أكثر رحمة به من رؤيته اياى أزف الى شخص آخر ، ولقد بذلت جهودا جبارة •• واحتجت لكافة قدراتى على الاقناع •• حتى جعلته يعدل عن هذه الفكرة الجنونية ، و •• وكان الفراق •

فجأة أعلنت أسرتى عن اتمام خطبتى لطبيب لامع •• رغم اننى لم أكن قد قبلت بعد •• فأسرعت أسرته ترد علينا بسفره الى أمريكا فى بعثة ! ؛ ولم يكن أمامى من سبيل سوى قبول الخطبة •• أو هكذا خيل الى بعد مناقشة قصيرة مع أمى :

ـ تعلمين جيدا حبى لعلاء فكيف أتزوج شخصا آخر ؟

ـ ما أسرع ما ستنسينه •• ربما قبل مرور بضعة أشهر !

ـ ألا ترين الأفضل أن تتمهل فى قبول الخطبة حتى انساه فعلا ؟ ••

ردت بحسم : بالعكس •• فانك لن تنسينه الا بحب

جديد .. حبك لزوجك .. خاصة أن زواجك سيبعدك عن أماكن الذكريات فيساعدك على النسيان ..

لكن شيئا من تأكيدات أمى لم يتحقق .. ويبدو أن أماكن الذكريات كانت داخلى ! ولو اننى عرفت يومها مدى الفراغ والضياع النفسى الذى قدر لى أن أعيشه طوال حياتى مع ماجد .. فأقسم ما كنت قبلت أبدا زواجى منه ، ولاتنظرت على أمل أن ينهى الوالدان قطيعتهما ، وفعلا حدث ذلك فى أقل من عام .. وكأنهما ما تخاصما ولا تقاطعا الا من أجل أبعادى عن علاء .. فلما اتما هذه المهمة الجليلة المقدسة .. عادت صداقتهما كما كانت وأكثر !! ، قالت والدتى :

ــ هل تسخرين ؟ . من يدريك أن تكون هذه هى الحقيقة فعلا .. انها القسمة والنصيب .. لم يرتب القدر انك ستكونين من نصيب علاء .. فحرك الوالدين من خلال خيوطه غير المنظورة ففعلا ما فعلا ! ..

أبدا لم أنس علاء يوما واحدا فى حياتى الجديدة ، ظل يملأ كل قلبى وأبى أن يتزحزح عن جزء ولو بسيط منه لماجد ، وهكذا عشت مع هذا الأخير بلا قلب .. بلا روح ، ولولا أننى أنجبت طفلى الأول بعد عام واحد من زواجنا .. لكنت طلبت منه الطلاق قبل أن يكتمل هذا العام ، ربما من أجله هو أكثر

منه من أجلى أنـا •• فحقا كان ماجد يستحق عطـاء أفضـل بكثير مما منحته أنـا •• اذا كنت قد أعطيته على الاطلاق ، فهو لم يبخل قط بجهد فى امكان بشر لكى يسعدنى ويرضينى •• ولولا سبق تعلقى بعلاء لكان حتما أن أحبه •• وأنـا أراه يغدق على من مشاعره وأحاسيسه بسخاء ما بعده سخاء ، لكن ما ذنبى وقد جاء متأخرا •• بعد أن منحت حبى وكافة مشاعرى لشخص آخر •• وأصبحت من العواطف صفر اليدين •• أو « صفر القلب » ! ••

لذلك لم أستطع ــ على مر السنين ــ أن أتجاوب معه •• دائما كانت صـورة علاء فى لقاء الوداع تملؤنى بالشعور بالذنب فتقف دون هـذا التجاوب •• عندما بكى وهو يؤكد أننى حبه الأول والأخـير •• وأنه لن يعرف فتاة بعدى أبدا ــ دائمـا أتساءل : ترى كيف هو ــ المسكين ــ اذا كنت أنـا وسط كل أسرتى وطفلى وأعانى هذا الجدب العاطفى ؟ !

الساعات تمر •• حتى كاد الليل أن ينتصف ولم يقع الحدث الأعظم •• لم ألتق بعلاء •• لم تأت اللحظة التى دبرت أن أسرقها من الزمن •• والتى ظللت طوال الساعات السابقة أخطط كيف أقبض عليها بكل قوتى قبل أن تفلت منى وتصبح ماضـيا •• حتى أظل أتأملها وأستعيدها عندما انفرد بنفسى •• أننى حتى

لم أره •• رغم أن ظروف المناسبة تسمح بجلسة طويلة وحديث ذى شـجون ••ولم أر مناصـا من التخلى عن اعتمـادى على الظروف •• فبدأت أبحث عنه بنفسى •• فى الفيراندة •• أو بعض الغرف •• لكن عبثا ، كأن الأرض قد انشقت وابتلعته ! ••

فجأة ارتفعت أصوات الدفوف •• انها الزفة ، لقد اصطحب العريس عروسه الى عشهما •• وعلى باقى المدعوين أن ينصرفوا بدورهم ، وشـددت صـديقتى الاثيرة هناء ــ شقيقة عـلاء الكبرى ــ من ذراعها الى غرفة داخلية لاسألها فى حدة :

ــ أين علاء •• ألم يحضر الحفل ؟ !

ــ بل حضر بالطبع •• لكنه قضى أغلب الوقت فى غرفـة المكتب القصية •• قال أن أعصابه لا تتحمل الزحام والضجيج !

قلت بجرأة أدهشتنى أنـا نفسى :

ــ أريد أن أراه ! ••

وبدا الذهول على وجه هناء •• وهى تفتح فمها قبل عينيها دون أن تنطق •• ثم قالت :

ــ ماذا دهاك يا عايدة ؟ !

ــ أيجب أن يكون قد دهانى شىء لارغب لقاء علاء ؟ • لقد مضت عشر سنوات دون أن أراه ! ••

ـ هذا أفضل لكليكما .

ـ أعتقد أنني أدرى بما هو أفضل لى ..

ـ لكن .. لماذا تحاولين بعث حبكما القديم من قبره ؟ ! .

ـ ومن قال لك أننى وارينه قبرا ؟ ..

عادت نظرة الذهول تطل من عينيها : ـ ما الذى ترمين اليه أو تتوقعينه بالضبط ؟

قلت بتهكم : ـ لا تخشين شيئا .. لن أخطف أخاك ! ..

ـ بل انما أخشى عليك أنت .. هو زوجته غريبة عن بلدنا وحتى عن ديننا .. كما وانه ليس لديه أولاد ..

عدت أقول بيأس : ـ أقسم لك يا هناء أننى ـ رغم كل أمنيات قلبى ـ لم أخطط لأى شيء .. كل ما أريده أن أراه وكفى ، وسأراه .. فاذا لم تساعدينى باستدعائه هنا .. فأظن أن لدى قدمين يمكن أن تحملانى الى مكانه ! ..

كانت فى حالة غير عادية .. حالة تقرب من الجنون .. حالة تسمح لى بالاقدام على أى تصرف .. ضاربة عرض الحائط بكل ما تفرضه قواعد الأصول أو العرف أو التقاليد ، رياح الرفض والاحباط والمرارة والحياة الروتينية الخاوية .. التى

عربدت فى سماء حياتى طوال الأعوام الماضية .. والتى بدأت نذرها تلوح منذ بداية سهرة الليلة .. تفاعلت مع عواطفى المكبوتة .. فتحولت الى ثورة عارمة على استعداد لأن تدمر أى شيء .. وكل شيء ! ..

فجأة أحسست بمئات الورود والازاهير تتفتح فى قلبى .. دخل علاء ! .. واتجه الى شقيقته بالحديث :

ــ ما هذا يا هناء ؟ .. أين الملبس الخاص بمارى ؟ .. نى ساعة وأنا ..

قطع كلامه وهو ينظر الى مبهوتا .. فى حين تسمرت أنا مكانى وقد وجف قلبى ، وتلاحقت أنفاسى .. انه هو ، هو .. كما كان .. نفس نظرته الآسرة .. التى تنفذ مباشرة الى أعماق القلب .. فجأة ابتسم وهو يقترب منى :

ــ أكيد أنت عايدة .. ابنة عمو شفيق .. لقد عرفتك رغم الزيادة الكبيرة فى وزنك .. لعلك مازلت تذكرينى .. فقد كنا جيرانا لسنوات طويلة .. بل أكثر من ذلك ..

ارتفعت ضحكاته وهو يكمل : ــ كانت بيننا قصة حب .. نعم .. اننى الآن تذكرت هذه الأيام الخوالى ! ..

كدت أصعق لرد فعل لقائنا فى نفسه .. وظهرت على وجهى علامات الدهشة .. فعاد يضحك وهو يوجه الحديث لاخته :

ـ عايدة .. آسف .. مدام عايـدة ـ على ما يبدو ـ لا تذكر شيئا من كل ذلك الآن .. مع أن من كان يرانا يوم الوداع الأخير .. « المهول » .. كان يظن أن فراقنا يعنى نهاية العالم !! ، عندما ينضج الانسان ينظر الى تصرفاته خـلال فترة الشباب فيكتشف كم كان مندفعا .. حتى ليقيم الدنيـا ويقعدها لأتفه الأمور .. متصـورا أن سعادته قد غربت الى الأبد دون أمل فى شروق ! ..

ازدادت ضحكاته ارتفاعا وهو يردف : ـ تصـورى أننا يومها فكرنا فى الانتحار ؟ !

قطع ضحكاته دخول والدتى ووالدته .. التى قالت له :

ـ عايدة حضرت بدون زوجها لسفره .. وطبعا غير معقول ان تستقل تاكسيا الآن .. من حسن الحظ انها تقيم فى الجيزة.. أى ستكون فى طريقك لفندقك فى الهرم ..

رد ببساطة : ـ آسف يا أمى .. لاننى سأسلك كوبرى فيصـل .. حيث طريق الجيزة يستغرق عادة وقتـا أطول .. وبالتالى سيعطلنى عن الموعد الذى وعدت مارى بالعودة فيه .. انها دقيقة جـدا فى مسـألة المواعيـد .. وليست مثلنا نحن المصريين .. لا نلتزم بأى شىء ! ..

حمدا لله أن كان بجوارى أحد الكراسى .. والا لوقعت

على الأرض عندما دارت بى الدنيا ، فى هـذه اللحظـة دخل زوجى .. الذى كان يبدو عليه الارهاق بعض الشيء .. قـال ان مهمته تأخرت قليلا .. لكنه خشى الا أكون قد استطعت العودة ومن ثم يصطحبنى هو .

كانت فرصة أن أتمكن من استعادة توازنى خـلال الطريق الطويل من مصر الجديدة حتى الجيزة ، وعندما دخلنـا منزلنا كان هناك خاطر واحد يراود تفـكيرى .. حين يحـاول ماجد مرة أخرى أن يظهر لى مشاعره .. أعتقد أننى سأستطيع التجاوب معه .. حيث لن تجرؤ صورة علاء الضاحكة ــ هذه الليلة ــ على الظهور أمامى ! .

الفهـــرس

صفحة

احســـان كمال

صدرت لها خمس مجموعات قصصية :

١ — « سجن أملكه » عن هيئة الكتاب سلسلة المـاسى عـام ١٩٦٥.

٢ — « سطر مغلوط » عن هيئة الكتاب عام ١٩٧١ .

٣ — « أحلام العمر كله » عن روايات الهلال عام ١٩٧٦ .

٤ — « الحب أبدا لا يمـوت » عن روايـات الهـلام عـام ١٩٨١ .

٥ — « أقوى حب » عن كتـاب اليوم عـام ١٩٨٢ .

ترجمت قصصها الى ست لغـات عاليـة ــ الانجليزية والفرنسية والروسية والسويدية والصينية والهولندية .

حصلت على جائزة نادى القصة مرتين عامى ١٩٥٨ ، ١٩٦٠ .

حصلت على ميدالية المجلس الأعلى للفنون والآداب عن أحسن قصص معركة أكتوبر عام ١٩٧٤ .

رقم الايداع ٨٧/٤٢٤١
الترقيم الدولى ٤ ـ ١٣٩٦ ـ ٠١ ـ ٩٧٧

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب